الدكتور أحمد مطلوب

القزوينى والبلاغة الحديثة

١٣٨٣ ــ ١٩٦٤

القزويني والبلاغة الحديثة

الدكتور أحمد مطلوب
مدرس في قسم اللغة العربية

١

ظلت البلاغة العربية طوال العصور السابقة متوناً تقرأ وشروحاً تدرس حتى أطل فجر النهضة الحديثة على أمة العرب فأحس الناس انه لابد ان تتغير طرائق التدريس ، ولابد ان تتجدد مناهج البحث والتأليف فأخذ الدارسون يحيون تراثهم ويخرجون بحوثاً فيها طرافة وتجديد . وكان للبعثات العلمية منذ عهد محمد علي أهمية كبيرة في اتصال العرب بالغرب والاطلاع على مناهج بحثه وطرق تأليفه ، وقد أشاع المبعوثون مفاهيم جديدة في البلاغة بعد أن رأوها في الغرب قد تخلصت من رواسب الماضي واتجهت اتجاها جديدا فيه نفع في تقييم الادب وأدمجت في « علم أوسع شأناً وأعظم خطرا هو علم الاسلوب الحديث وفيه اتسعت النظرة وعني بالوجوه الجمالية التي ساعدت على صدق الكاتب واصالته وشملت ميادين فسيحة جديدة لم تكن لتخطر للبلاغيين من قبل على بال »[١] وبقيت بلاغتنا كما كانت في عصور الشروح والحواشي ليس فيها نفع وفائدة في نقد الأدب وتقديره . وقد استفاد المؤلفون العرب مما رأوه عند الاوربيين واخذوا يخرجون كتبا فيها عمق الكتب العربية القديمة واصالتها وفيها طرافة البحوث الجديدة .

وكان الازهر الشريف أول من حمل لواء التجديد في البلاغة بعد الاصلاحات الكثيرة التى ادخلت في مناهجه وطرق تدريسها . لقد كانت في الازهر علوم لغوية مختلفة قبل نظام الازهر لسنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٦م ، وقد جاء بيانها في رسالة مقدمة من شيخ الازهر الى الخديوي في سنة

---

(١) المدخل الى النقد الحديث ص ٢٥٣ .

١٣١٠هـ – ١٨٩٢م ، واشتملت هذه الرسالة على الموضوعات الآتية : علم التوحيد والتصوف والتفسير والتجويد والقراءات والحديث ومصطلح الحديث وفقه المذاهب الاربعة وأصول الفقه واللغة والنحو والصرف . أما البلاغة فقد كانت تدرس في تلخيص القزويني بشرح التفتازاني ومفتاح العلوم للسكاكي بشرح السعد والسيد الجرجاني ، والجوهر المكنون للأخضري بشرح الدمنهوري وعقود الجمان وشرحه للسيوطي ومنظومة ابن شحنة والرسالة البيانية للصبان والسمرقندية[1] . ولما وضع قانون سنة ١٣١٤هـ – ١٨٩٦م ، كان يدرس من علوم البلاغة في السنة الثامنة الجوهر المكنون ، وفي التاسعة والعاشرة شرح السعد المطول بحاشية الدسوقي[2] . وعندما وضع نظام سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) نالت البلاغة بعض التطور والتجديد في تدريسها وكتبها ، فكان يدرس من علم البيان في السنة الثالثة رسالة الدردير أو السمرقندية وفي الثامنة القسم الثاني من السعد على التلخيص ، ويدرس من علم المعاني في السنة السابعة القسم الاول من السعد على التلخيص ، وكان القسم الثالث من السعد على التلخيص يدرس في السنة الثامنة ، ووضعت دراسة جديدة تسمى البلاغة التطبيقية يدرس منها في السنة التاسعة دلائل الاعجاز وفي العاشرة أسرار البلاغة أو كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري[3] . وكان هذا التطور بفضل الشيخ الامام المرحوم محمد عبده الذي أخذ يحيي كتب السلف النافعة وعلومهم ويقوّم ما اعوجّ من مناهج التأليف وطرائق التدريس . وقد انصرف الاستاذ الامام الى تدريس كتابي دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبدالقاهر ففتّح أذهان الطلبة وقوّى مداركهم ومواهبهم ؛ لانهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه ، وبذلك كان الجامع الازهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرىء فيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة درسا لطلاب البلاغة ، ولاجله طبع الكتابان وانتشرا في معاهد التعليم . ولكن أساتذة الازهر احجموا بعد الامام عبده عن تدريسهما

---

(١) ينظر تأريخ الاصلاح في الازهر ص ٥٤ .
(٢) تأريخ الاصلاح في الازهر ص ٦٢ .
(٣) تأريخ الاصلاح في الازهر ص ٧٧ – ٧٨ .

مع انهما مقرران للتدريس رسميا وبذلك احتضرت الدراسات البلاغية بعده وكادت تموت .

وتخرج في الازهر الشريف في مطلع العصر الحديث جيل فيه عزم على البحث وفي روحه اندفاع الى التجديد ، وأنشأ الخديوي اسماعيل دار العلوم سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) باشارة من علي مبارك ناظر ديوان المدارس ، وكان الغرض من انشائها ان يتعمق الطلبة في الدراسات الاسلامية والعربية . وقد صانت هذه الدار اللغة العربية حتى ان الامام محمد عبده اعجب بها فكتب عنها في تقريره عن امتحانها النهائي الذي رأسه سنة ١٩٠٤م : « واني انتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي وما اعتقده من منزلتها في البلاد المصرية ومن اللغة العربية . ان الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية واهمال اهلها في تقويمها ، ويوجهون اللوم الى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم اسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فان باحثا مدققا لو أراد ان يعرف اين تموت اللغة واين تحيى ، لوجدها تموت في كل مكان ووجدها تحيى في هذا المكان »[1] ، وكان بعض طلاب الازهر ممن تتلمذوا على الشيخ محمد عبده أساتذة في هذه الدار فبعثوا في البلاغة روحا جديدا .

ومن الكتب المؤلفة في فجر النهضة الحديثة وما قبلها بقليل كتاب « حسن الصنيع في علم المعاني والبيان والبديع » لجامعه الشيخ محمد البسيوني البيباني (١٣١٠هـ)[2] ، وقد وضعه استجابة لرغبة خيري باشا ناظر المعارف يومذاك ، ويعتبر هذا الكتاب حسنة من حسنات ذلك العصر الذي لم تكن للمؤلفين فيه وجهة سوى تأليف الحواشي والتقريرات مع عنايتهم بالبحوث اللفظية لا تسهيل العلوم وضبط مسائلها . والكتاب صورة من كتاب الايضاح للقزويني مع اختلاف بسيط في المنهج ، حيث غيّر قليلا في منهج مباحث علم المعاني ، ولم يوزع موضوعات الحذف والذكر والتقديم والتأخير

---

(١) ينظر نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ص ٥٢ ، ومستقبل الثقافة في مصر ص ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، والتعليم في مصر ص ٦٥ - ٨١ .

(٢) تنظر ترجمته في تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص ٢١١ .

وغيرها على المسند اليه والمسند ، وانما جمع كل موضوع في فصل واحد فبحث تقديم المسند اليه والمسند في مبحث ، وحذف المسند والمسند اليه في مبحث آخر وهكذا في جميع المباحث ، وهذا عمل يحمد عليه المؤلف ، وبحث المجاز العقلي في علم البيان كما فعل السكاكي وبذلك خالف القزويني من هذه الناحية ، وكان البسيوني في علم البديع أوسع افقا من القزويني حيث بحث موضوعات خاتمة التلخيص والايضاح في البديع فتكلم في المحسنات المعنوية على براعة الاستهلال والتلميح والتضمين والاقتباس والعقد والحل . ونستطيع ان نعتبر هذا الكتاب بادرة طيبة من البسيوني واضرابه ؛ لانه نبه الناس الى التأليف في البلاغة والنقد وعدم التمسك بالشروح والحواشي والتقريرات أو التمسك بمنهج السكاكي والقزويني . ويمكن القول ان البسيوني لو استطاع ان يفلت من منهج القزويني وبلاغته لاتى بكل طريف رائع .

وكتب حفني ناصف (١٣٣٧ هـ)[1] قواعد اللغة العربية وهو مجموعة في النحو والصرف والبلاغة ، ويشبه القسم البلاغي منه كتاب البسيوني لان حفني ناصف وزملاءه خالفوا القزويني في مباحث علم المعاني في الامور التي خالفه فيها البسيوني ، وبقي الكتاب ردحاً من الزمن العمدة في تعليم اللغة العربية مع ما فيه من اختصار .

وعاد الشيخ أحمد الحملاوي (١٣٥١هـ – ١٩٣٢م)[2] في كتابه « زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع » الى منهج القزويني وقسم علم المعاني كما قسمه وذكر المجاز العقلي فيه وسار على خطاه في توزيع مباحث علم البيان ، الا انه خالفه مخالفة بسيطة في علم البديع ورتب فنونه كما رتبها أصحاب البديعيات واطال في ذكر أنواعها وامثلتها . وتبدو استفادته واضحة من كتاب عروس الافراح للسبكي وخزانة الادب للحموي ، وأضاف الى بعض فصول الكتاب تمرينات لا تخلو من فائدة . والكتاب حلقة جديدة في التأليف

(١) تنظر ترجمته في تأريخ علوم البلاغة ص ٢١٣ .
(٢) تنظر ترجمته في تأريخ علوم البلاغة ص ٢١٧ .

بعد الجمود الذي أصاب الدراسات البلاغية والنقدية ، ولا يزال يدرس في بعض المعاهد ويطبع كل حين •

وللاستاذ علي عبدالرازق « أمالي في علم البيان وتأريخه » ، والجديد في هذا الكتاب قسمه الاول الخاص بتأريخ علم البيان ، فقد استعرض المؤلف هذا العلم منذ نشأته حتى الفترة المظلمة ، وخصص القسم الثاني لدراسة موضوعات البيان وهي : التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وعرض الآراء المختلفة في كل موضوع ، ولكنه لم يخرج عما رسمه السكاكي والقزويني ، ولو تجاوز المؤلف بلاغة القزويني لاستطاع ان يأتي بكل طريف لانه كان ذا عقلية ناضجة واحساس مرهف ، وله بعض الالتفاتات القيمة في منهج السكاكي وتمحلات البلاغيين في تحديد مباحث علم البيان واستعانتهم بالدلالات العقلية ، وكان هذا الكتاب مدعاة للتفكير في اعادة النظر في مفاهيم البلاغة القديمة فاستفاد منه الاستاذ أحمد مصطفى المراغي في نقد منهج السكاكي وأوحى الى الدكتور بدوي طبانه كتاب « البيان العربي » الذي كان نسخة موسعة منه مع تجديد في العرض واضافة ملاحظات قد لا تكون جديدة في كثير من الاحيان • ومن المؤسف حقاً ان الدكتور الفاضل طبع كتابه ثلاث مرات ولم يشر الى أمالي عبدالرازق •

وللاستاذ أحمد الهاشمي كتاب « جواهر البلاغة » وقد نهج فيه نهجا قريبا من منهج القزويني الا انه اختلف عنه في بحث الانشاء وحقيقته حيث تحدث عنه بعد ان تكلم على الخبر ، ثم ذكر أحوال المسند اليه والمسند ومتعلقات الفعل والقصر والفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة • اما البيان والبديع فقد سار فيه على خطاه وأضاف اليه بحث التصحيف والموازنة وائتلاف اللفظ مع اللفظ والتسميط والانسجام والسهولة والاكتفاء والتطريز • وختم الكتاب بالبحث في السرقات وما يتبعها ، وأضاف اليه تمرينات ليستفيد منها الطلبة ويتمرنوا على الاساليب • وكتاب جواهر البلاغة من الكتب المدرسية الجيدة ، ولا يزال يدرس في المعاهد والثانويات ، ولا أدري لماذا اغفل الاستاذ المراغي ذكره في كتابه «تأريخ علوم البلاغة والتعريف

برجالها » مع ان الهاشمي لا يقل عن غيره ممن ذكرهم في الكتاب •

ووضع الاستاذ أحمد مصطفى المراغي[1] « علوم البلاغة » على غرار تلخيص القزويني وايضاحه مع ترتيب آخر لمباحث علم المعاني حيث قسمها الى الخبر والانشاء والذكر والحذف والتقديم والتعريف والتنكير والتقييد والخروج عن مقتضى الظاهر والقصر والفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة ، وبذلك رتب موضوعاته ولَمَّ شتاتها تحت باب واحد ، وسار على خطا القزويني في تقسيم علمي البيان والبديع ، وجمع في كتابه بين طريقة عبدالقاهر ومنهج السكاكي والقزويني واستفاد من أمثلة الاول وتعليلاته ، وأخذ من الآخرين المنهج والتقسيمات مع تغيير بسيط •

وأهم كتب البلاغة الحديثة « البلاغة الواضحة » للاستاذين علي الجارم ومصطفى أمين[2] ، وقد كان هذا الكتاب حلقة الانتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد وحفظ القوالب الى الاهتمام بالتحليل • وقد اتبع المؤلفان طريقة تربوية جديدة في التأليف ، فكانت الامثلة تأتي قبل الشرح والقواعد ثم تحلل ويشرح ما فيها من فنون بلاغية ، وينتقل المؤلفان بعدها الى تقنين القواعد ثم عرض التمرينات • وسارا فيه من علم البيان فالمعاني فالبديع ، ولم يدرسا من الاخير الا الجناس والاقتباس والسجع والتورية والطباق والمقابلة وحسن التعليل وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه وأسلوب الحكيم • ولعل أهم ما يمتاز به كتاب « البلاغة الواضحة » البحث في الاسلوب وهو « المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل في نفوس سامعيه »[3] ، وقسماه الى : الاسلوب العلمي والاسلوب الادبي والاسلوب الخطابي وبذلك كان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي بحثت في الاسلوب في العصر الحاضر • وكانت هذه الكتب عماد دراسة البلاغة في مصر والاقاليم العربية

---

(١) تنظر ترجمته في تاريخ علوم البلاغة ص ٢١٩ •

(٢) تنظر ترجمتهما في تقويم دار العلوم العدد الماسي ص ١٦٢ ، ٢٠٥ ، والبيان العربي (الطبعة الثالثة) هامش ص ٢٦٣ •

(٣) البلاغة الواضحة ص ١٢ •

المختلفة مع وجود غيرها ككتاب « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » للاستاذ جبر ضومط ، « والمبسط في علوم البلاغة » للاستاذ محمد طاهر اللاذقي وغير ذلك •

هذه أهم كتب البلاغة التي اتجه فيها أصحابها الى القزويني يأخذون منه منهجه وطريقة عرضه وامثلته ، وقد رأينا انها لم تقدم للبلاغة العربية الحديثة شيئا ذا نفع ولم تغير منهج البحث والتأليف •

ونبغ كثيرون من خريجي الازهر ودار العلوم وكانت لهم كتب فيها تجديد ونزعة أدبية • وكان الاستاذ مصطفى المراغي من خيرة أساتذة دار العلوم في بحث البلاغة حيث الف كتاب « علوم البلاغة » الذي اشرنا اليه ، و « تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » وهو بحث موجز في تأريخ البلاغة العربية وترجمة لرجالها الاعلام ، وفيه آراء قيمة ونظرات صائبة في منهج السكاكي ، وللمراغي كتاب « بحوث وآراء في علوم البلاغة » وهي البحوث التي ذكرها فيما بعد مبوبة مهذبة في كتابه تأريخ علوم البلاغة وان اختلفت طريقة العرض والتأليف •

ولما انشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م قام أساتذتها يجددون في بحوثهم مستهدين بتراثهم القديم ومناهج الغربيين ، وكان للبلاغة نصيب ليس بالقليل من هذا التجديد وتطبيق المناهج الحديثة والاستفادة مما وصل اليه الاوربيون في العصر الحاضر • ولعل الاستاذ الدكتور طه حسين كان من أوائل الذين نادوا ببعث البلاغة العربية ، وببحثها بحثا يقوم على تفهم مرامي القدماء ومقاصدهم ، وعلى الموازنة ومقارنتها ببلاغة اليونان ، وذلك ببحثه القيم « البيان العربي من الجاحظ الى عبدالقاهر » الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين باللغة الفرنسية في ليدن ١١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٣١م ، ونشر مترجما بقلم الاستاذ عبدالحميد عبادي في مقدمة كتاب نقد النثر سنة ١٩٣٣م وقد قرر الدكتور طه حسين ان البيان العربي في أول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر مختلفة هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، والعنصر اليوناني وقد بلغ ذروته على يدي الشيخ عبدالقاهر ، ولم يتقدم

بعده بل أخذ على العكس من ذلك في التأخر والانحطاط . والشيء الجديد في هذا البحث ان الدكتور طه نبه الى أثر أرسطو في البلاغة العربية ، وقرر ان البيان العربي كان في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا وبالبيان اليوناني أخيرا ، ولم يكن ارسطو المعلم الاول للمسلمين والعرب في الفلسفة وحدها ولكنه الى جانب ذلك معلمهم الاول في علم البيان .

وكان لهذا الرأي أثر كبير فأخذ الباحثون يتلمسون ما أوجزه الدكتور طه ويقارنون بين بلاغة العرب وبلاغة اليونان ، وألف الدكتور ابراهيم سلامة بحثا قيما هو « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » أثبت فيه ما ذكره طه حسين ، وتتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ متلمسا أثر ارسطو ، موضحا فهم العرب لكتابي الخطابة والشعر ، وخرج بنتائج طيبة فكان كتابه بحق أهم بحث في هذا الميدان لولا وقوفه عند عبدالقاهر واهماله السكاكي والقزويني وابن حازم القرطاجني وشراح التلخيص وغيرهم ممن كان تأثير الفلسفة وعلم الكلام ومنطق ارسطو أوضح فيهم وأكثر ظهورا .

واشتغل الاستاذ أمين الخولي في البلاغة وكان له اثر في توجيه طلابه نحو البحث الحر بما ألقى من محاضرات وقدم من بحوث كبحث « البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها » و « البلاغة وعلم النفس » و « مصر في تأريخ البلاغة » ومقالته عن البلاغة في دائرة المعارف الاسلامية وكتابه « فن القول » الذي رسم فيه مناهج بحث الفن الادبي والبلاغة ، وأخيرا كتابه « مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب » الذي ضم مقالاته المنشورة قديماً .

وكتب الاستاذ أحمد الشايب في البلاغة والنقد واخرج كتاب « الاسلوب » الذي يعد دراسة بلاغية تحليلية لاصول الاساليب الادبية ، ووضع كتاب « أصول النقد الادبي » الذي كان محاولة موفقة للجمع بين التراثين العربي والغربي في النقد وتفهم مسائله .

وكانت نتيجة الجهود التي قدمها شيوخ الازهر وأساتذة دار العلوم والجامعة أن ظهرت دراسات جامعية في البلاغة لها اصالتها ولها أسلوبها

الجديد ككتاب « البلاغة العربية في دور نشأتها » للدكتور سيد نوفل وكتابي « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية » و « قدامة بن جعفر والنقد الادبي » للدكتور بدوي طبانة ، وكتابي « أثر القرآن في تطور النقد العربي الى أواخر القرن الرابع الهجري » و « ضياءالدين بن الاثير وجهوده في النقد » للدكتور محمد زغلول سلام ، وكتاب « ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة » للدكتور حفني محمد شرف و « البلاغة عند السكاكي » و « القزويني وشروح التلخيص » لكاتب المقال و « مشكلة السرقات في النقد العربي » للاستاذ محمد مصطفى هدارة • وألفت كتب أخرى منها « فن التشبيه » و « فن الجناس » و « البلاغة الفنية » للاستاذ علي الجندي و « البيان العربي » و « السرقات الادبية » للدكتور بدوي طبانة •

وظهر اتجاه نفسي في دراسة الادب ونقده في السنوات الاخيرة ، ومن البحوث المهمة في هذه الناحية مقالة « البلاغة وعلم النفس » للاستاذ أمين الخولي ، وكتاب « علم النفس الادبي » للاستاذ حامد عبدالقادر ، وكتاب « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » للاستاذ محمد خلف‌الله • وهذه الكتب والبحوث وان لم تكن جديدة كل الجدة الا انها تعتبر خطوة هامة في هذا الاتجاه ؛ لان العرب وان اشاروا كثيرا الى أثر النفس في الانتاج الادبي ونقده غير انهم لم يستطيعوا ان يظهروا لنا هذا الاثر كما أظهره المحدثون بعد أن اطلعوا على دراسات علم النفس الحديثة وما كتب في هذا الميدان من دراسات نقدية وأدبية •

وقد حاول بعض المحدثين ان يضع مناهج بحث البلاغة الحديثة بعد ان وضعها القزويني وضعها الاخير ، منهم الاستاذ المرحوم طه ابراهيم الذي لم تطبع محاضراته في البلاغة والاستاذ أمين الخولي الذي يرى ان التقسيم القديم للبلاغة الى المعاني والبيان والبديع لا أساس له ولا غناء فيه لانه ينبغي ان يشمل البحث البلاغي الكلمة والجملة والفقرة والقطعة لا البحث في الجملة والجملتين وان ما حشدته طريقة العجم واهل الفلسفة في البلاغة من مقدمات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ينبغي

ان تبعد وتضم الى البلاغة مكانها مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه • وهذه المقدمات تتعلق بعلم النفس واثره في التعبير الادبي وبالوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني وبالخيال والذاكرة والاحساس والذوق ، ثم نبدأ بعدها بدراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على منهج صحيح بشرط ان لا نفرط بتراثنا وبلاغتنا القديمة ، لان التجديد ليس معناه هدم القديم وانما هو البناء بعد الاستعانة به وبما وصلت اليه الحضارة في هذه الايام(١) • وتجمعت جهود الخولي في كتابه « فن القول » الذي كان توجيها منهجيا شاملا لبحث البلاغة وخلق مدرسة بلاغية جديدة ، فهو يرى ان بحوث «فن القول» ينبغي ان تقسم الى ثلاثة أبواب هي : المباديء والمقدمات والبحوث • ندرس في الاول تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات ، وندرس في الثاني مقتبسات من القضايا النفسية التي تعيننا كثيرا في فهم الادب وتذوقه والاحساس بما فيه من روعة وجمال ، اما البحوث فتضم البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي وما فيها من جمال وجرس موسيقى له أثر في التعبير ، وتضم البحث في الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وايجاز واطناب ، وتضم البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل وما تؤدي من صور ، وتضم البحث في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والايحاء والتورية ، وتضم القطعة الادبية وقد تكلم فيها على عناصر العمل الادبي وما بين اللفظ والمعنى من علاقة ، وندرس أخيرا الاساليب الفنية في الادب وأنواعها كالاسلوب الرمزي والفكاهي والتهكمي • وبهذا المنهج الواسع الذي يشمل معظم مباحث البلاغة القديمة ، ويضم كثيرا من الفنون الحديثة نستطيع ان ندرس البلاغة دراسة جديدة تقوم على تفهم الفن الادبي ومقاييسه البلاغية والنقدية •

---

(١) ينظر فن القول ص ٢١٥ ــ ٢٢٣ ، ومقالة البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها ص ١٧ ، ومقالة البلاغة وعلم النفس ص ١٤٨ ، ومادة بلاغة في دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ٧٢ ، وكتاب مناهج تجديد ص ٢٦٤ ــ ٢٦٨ ، وص ٣٢٣ وما بعدها •

وكان كتاب « الاسلوب » للاستاذ أحمد الشايب ثمرة خبرة عميقة في درس البلاغة وتدريسها ، وقد وضع على ضوء هذه الخبرة والتجارب منهجه الجديد • ويرى ان ينحصر موضوع علم البلاغة في بابين أو كتابين هما : الاسلوب والفنون الادبية ، فتدرس في الاسلوب القواعد التي اذا اتبعت كان التعبير بليغا أي واضحا مؤثرا • وندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة ، والاسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه • وفي هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فعلم المعاني يدخل كله في بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة وتبقى المباحث الاخرى مهملة في هذه الكتب التي انتهت اليها الدراسة البلاغية • وفي الفنون الادبية – وقد تسمى قسم الابتكار – ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها وما يلائم كل فن من الفنون الادبية وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتأريخ •

وبالموازنة بين بحوث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الاخيرة وبين موضوعها كما يجب ان يكون ، انتهى الاستاذ الشايب الى ان نصف البلاغة النظرية مفقود في اللغة العربية ، أكثره في قسم الفنون الادبية وباقيه في باب الاسلوب ، وان شطراً من الاسلوب قد درس تحت عنوان المعاني والبيان والبديع وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق ولا حاجة بنا الآن الى هذه الاسماء التي تسمى علوما خاصة لاجل فصول بلاغية يسيرة • وان البلاغة العربية في حاجة الى وضع علميّ جديد يشمل هذه الابواب والفنون ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية حتى يخدم الادب ، وان الادباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم والغازهم ، فذلك هو الذي أفسد بلاغتنا وحولها بحوثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء[1] •

ويرى الاستاذ عبدالله العلايلي ان ننهج في دراسة البيان الجديد أحد وجهين :

---

(١) الاسلوب ص ٢٨ – ٣١ •

الاول : الغاء كل مباحثه واصطلاحاته سوى التشبيه والكناية فان ما بقي يرجع اليهما من أقرب الطرق اذا انصفنا التطبيق ولم نتحرج عليه بتمحل محض ، فهذه الاستعارة بالكناية يمكن ان ترد الى التشبيه الكنائي فيقال في مثل :

واذا المنية أنشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

شبهنا المنية بشيء له أظفار وأرسلناه كناية عن الامساك في دقة وشدة تعلق ، وما وراء هذا من التخييل تخييل . أو بلا ملحظ التشبيه أصلا وانما من أول الامر يقال جعل للمنية اظفارا كناية عن دقة التعلق وعسر الخلاص .

والثاني : الى حقيقة ومجاز ، وكل منهما كناية وتجريد ، والكناية الحقيقية تشمل الكناية البسيطة والتشبيه والمجاز المرسل والمجاز المركب ، والكناية المجازية تشمل كل كناية انبنت على تشبيه ، والكناية المركبة .

اما علم المعاني فلما كان للغة بمثابة المنطق فيرى ان لا يدرس في كتب القواعد كعلم بل يدرس على نهجه في كتب الادب كما نجد عند عبدالقاهر في دلائل الاعجاز وعند الزمخشري في التفسير مع تهذيب مباحثه لتكون أدخل في الذوق وأقرب مناطاً بالنفس . ويدرس علم البديع كما يدرس علم المعاني(١) .

وتكلم الاستاذ أدور مرقص في مقالته « نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها » على أنواع البديع المقترحة ، يقول : « وقد فكرت في ذلك ملياً وقلت ان هذا الفن أصبح معرضاً لناموس رد الفعل ، فهو الآن محتاج الى شيء من الاندغام والاندماج عوض ما وقع فيه من التمدد المفرط المحسوب مضَلَّة ومتاهة ومن ثم اجتهدت في رد أنواعه الى أجناس قليلة يدخل تحت كل جنس منها عدة أنواع »(٢) .

وامهات الاجناس البديعية التي تنبه اليها : الموافقة ، والمخالفة ، والترتيب ، والمبالغة ، والاستدراج ، والتلميح ، وحسن التعليل ، والايهام ،

(١) مقدمة لدرس لغة العرب ص ٤٣ ـ ٤٥ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٩ ص ٤٨١ .

والتدقيق ، والتوليد ، والكلام الجامع • اما الموافقة فتنطوي على أنواع الجناس ، والمراجعة ، والتوشيح ، وتشابه الاطراف ، والتفويف ، والتصدير ، ومراعاة النظير ، والتمثيل ، والتوجيه ، والترديد ، والتكرار ، والمناسبة ، والتشبيه ، والتفصيل ، والمشاكلة ، والجمع ، والتصريع ، وتشبيه شيئين بشيئين ، والاشتقاق ، والاتفاق ، والمماثلة ، والتسهيم ، والتطريز ، والترجيع ، والتفريع ، والسجع ، والتسميط ، والالتزام ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع الوزن ، وائتلاف المعنى مع المعنى ، والحذف ، والتدبيج • واما المخالفة فينطوي تحتها الطباق ، والمقابلة ، وايهام التضاد ، والمناقضة ، والعكس ، والتفريق ، والسلب والايجاب ، والرجوع ، والاستدراك • واما الترتيب فينطوي تحته : الترتيب ، والطي والنشر ، وايهام التناسب ، والاطراد ، والتقسيم ، والتفسير ، والايضاح ، وحسن النسق ، والتشطير ، والتعديد ، وجمع المؤتلف والمختلف ، والمزاوجة ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق • اما المبالغة فتشتمل على التبليغ ، والاغراق ، والغلو ، والقسم ، وتجاهل العارف ، والاستثناء ، وحصر الجزئي والحاقه بالكلي • واما الاستدراج فيشتمل على الافتنان ، والتذييل ، والاستتباع ، والادماج ، وحسن التخلص ، وعتاب المرء نفسه • وأما التلميح فيدخل في دائرته : التلميح ، والاشارة ، والاكتفاء ، والتوجيه ، والاقتباس ، والتضمين ، والابداع ، والالغاز ، وبراعة الطلب • وأما حسن التعليل ففيه حسن التعليل ، والالتفات ، والمذهب الكلامي ، والاتساع ، والمغايرة • واما الايهام ففروعه : الابهام ، والمدح في معرض الذم ، والذم في معرض المدح ، والتورية ، والاشتراك والاستخدام • واما التدقيق فأقسامه التشريع ، والايغال ، والاعتراض ، والاحتراس ، والفرائد ، والتنكيت ، والتكميل • واما التوليد ففروعه التوليد ، وسلامة الاختراع ، وحسن الاتباع • وأما الكلام الجامع ففيه الكلام الجامع ، وارسال المثل • واضاف جنس الكناية وهو – عنده – الكناية ، والتعريض ، والارداف ، والايضاح ، والقول بالموجب •

ويلاحظ ان هذه الاجناس المنطوية على هذه الانواع لا تقتصر على

الانواع المختصة بفن البديع كما عرفه البلاغيون ، بل تتناول معظم الاساليب البليغة التي تشير اليها فنون البلاغة الثلاثة ، وقد وسع الباحث مفهوم هذه الفنون ونظر اليها نظرة لغوية الى جانب كونها مصطلحات فنية ثابتة ، وبذلك استطاع ان يتصرف فيها هذا التصرف الحسن ، وينظر اليها هذه النظرة الواسعة .

ويرى الاستاذ أنيس المقدسي ان تبويب موضوعات البلاغة القديم لا يفيد فائدة تامة ، ولذلك وضع ترتيبا آخر يكون أقرب الى واقع اللغة ، يقول : « رأينا ان مقاييس البلاغة لم توضع اعتباطا ولا توقيفا بل ترجع الى اعتبارات نفسية عامة . وقد اهتم علماء العربية قديما بهذه المقاييس وتدارسوها في أقسامها الثلاثة المعاني والبيان والبديع وافتن الشعراء والمنشئون في التأنق بصوزها على ان العلماء مع توفرهم على درسها وشرحها لم يعنوا بتبويبها تبويباً منطقيا يسهل على الباحث فهم حقيقتها والرجوع الى أصولها »[1] . وقد بوبها تبويبا جديدا وحصرها في ستة أبواب هي :

باب التعادل ويراد به تماثل الفقرات في الجمل وزنا وتركيباً وقد يسمى الازدواج ويدخل فيه التوازن والمماثلة ، والسجع ، والتسميط ، والترصيع ، والتزاوج .

وباب التواطؤ اللفظي وهو ان تكون الالفاظ على جرس واحد أو من أحرف متشابهة سواء اختلفت في المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن الى المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين وعلى ما فيها من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتآلفها ، ويدخل فيه الجناس ، والتورية ، والتصدير ، والعكس ، والجمع مع التفريق ، والمجاورة ، والطي والنشر .

وباب التواطؤ المعنوي ويتناول ما كان فيه مشابهة بين شيئين ومنه التشبيه والتمثيل والاستعارة ومراعاة النظير وتجاهل العارف .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣٠ ص ٣٥ .

وباب المغايرة وهو عكس المشابهة ، ويراد بها الجمع بين المتضادات أو اشباهها ويدخل فيه المقابلة ، والمطابقة ، والطرد والعكس ، والتهكم ، والاستفهام البياني ، والتغاير ، والسلب والايجاب • وقد يدخل تحت هذا الباب المناقضة ، والاستدراك والاستثناء ، والمجاورة ، والترديد ، وغير ذلك من هذه المقابلات •

وباب الخروج عن المعتاد ويشمل المجاز المرسل ، والتجريد ، والالتفات ، وتقديم ما حقه التأخير وبالعكس ، وتأخير المتقدم ، والغلو والمبالغة •

وباب الايماء الى غرض ، ومما يدخل فيه الكناية ، والتوجيه ، والاكتفاء ، والاتفاق ، والاشارات اللغوية والعلمية ، والادماج ، والتذييل ، والتتميم •

واذا رجعنا الى هذه الاتجاهات في تجديد البلاغة رأينا ان منهج الخولي أقرب الى واقع البلاغة وواقع اللغة العربية لما امتاز به من جمع شتات البلاغة وتوزيعها توزيعا جديدا ، ويلاحظ انه استفاد من بلاغة السكاكي والقزويني في رسم منهجها ووضع أصولها • ولم يخرج رأي الاستاذ الشايب عن رأي الخولي في قسمه الاول الخاص بالاسلوب ، أما القسم الآخر فلا نرى موجبا لادخاله في البلاغة وانما يكون موضعه دراسات خاصة تتعلق بالفنون الادبية المختلفة • أما رأي العلايلي فنرى فيه قضاء على كثير من صور التعبير وابتعادا عن البلاغة العربية قد يحرمنا ما في تراثنا من فائدة في بناء البلاغة التي نريدها ، والمجدد هو من قتل التراث القديم درسا وتحقيقا واطلع على مناهج البحث الحديثة ، فاخرج لنا جديدا له صلة عميقة بالتراث القديم وارتباط عظيم بالحاضر الذي نحياه • ونحن لن نقبل أية دعوة غير مبنية على أساس قوي تدعمها الحجج القوية وواقع اللغة العربية ، ولن نؤمن بأي مجدد يبني أصوله على الحديث فقط بحجة ان المحدثين أكثر اطلاعا

من القدماء وأوسع أفقا منهم • فكثيراً ما نرى الجديد لا يحتفظ دائما بصفة الجودة كما يزعم دعاته ، بل ان أصحابه الاصليين كثيرا ما يتشككون فيه ، وهذا ستانلي هايمان من أكبر النقاد الغربيين يرى ان النقد الادبي الذي كتب بالانكليزية في مدى الربع الماضي من هذا القرن مختلف من حيث النوع عن أي نقد سبقه ، وسواء سمي هذا نقدا جديدا أم نقدا علميا أم نقدا عاملا أم نقدا حديثا ، فان صلته الوحيـدة بالنقد العظيم في العصور الماضية لا تعدو الصلة بين الخالف والسالف ، فليس القائمون به أشد ألمعية أو أكثر تنبهاً للادب من أسلافهم ، بل انهم في الحق لا يتطاولون في هاتين الناحيتين الى عمالقة مثل ارسطوطاليس وكولردج[١] • ومثل هذا يقال عما ذكره الاستاذان ادوار مرقص وأنيس المقدسي ، ويبدو انهما اطلقا هذين الرأيين من غير ملازمة طويلة للبلاغة والنقد ، وان وفقا بعض الشيء فيما ذكراه الا انهما لم يصـلا الى ما ذكره الخولي الذي خبر كتب البـلاغة وغاص في أعماقها وسبر أغوارها وعرف منهج البلاغة عند الغربيين الذي يصفه بانه « واضح المعالم متميز القسمات ، سليم الاساس ، لا يخشى ان تشوبه شوائب مغيرة ، أو تناله انحرافات مؤثرة »[٢] •

هذه أهم اتجاهات البلاغة الحديثة وآراء الباحثين في دراستها وقد عرضنا لها لانها مبنية على ما تركه القزويني وشراح تلخيصه • ونحن هنا نقف لنسأل ما قيمة بلاغة القزويني وشروح التلخيص في هذا التجديد ؟ وما أهم الموضوعات التي يمكن الاستفادة منها ؟ وما الموضوعات التي يجب ان تجرد البلاغة منها لتكون صالحة في تقييم الادب ونقده واظهار ما فيه من روعة وجمال ؟

---

(١) ينظر النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ٩ •

(٢) فن القول ص ١٠٦ •

٢

جاء القزويني[١] في عصر استقرت فيه علوم اللغة العربية ، وصور للباحثين انها أخذت شكلها الاخير ، ولم يبق أمامهم الا ان يعكفوا على القديم يدرسونه ويختصرونه أو يشرحونه ويفصلون القول فيه تفصيلا ، أو ان ينكبوا على العلوم ليجمعوا الاشباه والنظائر وينسقوا الموضوعات . وكان عصر القزويني عصر الموسوعات ففيه وضع أبو الفضل محمد بن علي الافريقي المصري جمال الدين المعروف بابن منظور (٧١١هـ) أضخم موسوعة لغوية هي « لسان العرب » ، ووضع أحمد بن عبد الوهاب المعروف بشهاب الدين النويري (٧٣٣ هـ) كتابه « نهاية الارب » ، وكتب أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٤٩هـ) « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، وتابعهم في هذا الاتجاه أحمد بن علي القلقشندي (٨٢١هـ) فوضع كتابه « صبح الاعشى في صناعة الانشا » . وهذه الكتب وان أكدت على نواح معينة غير انها ضمت معلومات شتى فيها الفائدة وفيها النفع العظيم .

وما كان للقزويني الذي نشأ في هذا العصر أن يأتي بكل جديد طارف ، وما كان له ان يخرج على المألوف بعد ان رأى اتجاه قومه الى التراث القديم يخدمونه بتلخيصاتهم وشروحهم ، وقد نهز معهم بدلوه فاتجه الى مفتاح العلوم ولخص قسمه الثالث بعد ان رأى فيه حشوا وتطويلا وتعقيدا فأراد أن يختصره ويهذبه ويرتبه ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه ، ورأى ان هذا الكتاب كان مختصرا غير واف بالغرض فوضع شرحا عليه هو الايضاح الذي وقفت البلاغة عنده ولم يكتب لها بعده التطور والتجديد .

لقد قسّم القزويني البلاغة الى مقدمة ومقاصد ، والمقدمة في الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة ، ومن المقاصد ما يعرف به وجه الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وهو علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي وهو البيان ، ومنها تابع تعرف به وجوه التحسين وهو البديع ، وبهذا التقسيم

---

(١) توفي الخطيب جلال الدين القزويني سنة ٧٣٩هـ بدمشق ، وله : تلخيص المفتاح والايضاح وقد طبعا عدة مرات .

وزع القزويني بحوث البلاغة وهو تقسيم لا نراه مجديا في دراسة البلاغة العربية • لقد اخرج بحث الفصاحة عن مقاصد البلاغة وجعلها مقدمة وجر هذا الى نقاش واختلاف في معناها ، يقول السبكي : « فان اراد انها مقدمة الكتاب فهي جزء منه وان اراد انها مقدمة العلوم فهي ذريعة اليها بدليل انه سيذكر هذه العلوم مستقلة ، ويجوز ان تكون جزءاً لكل من الثلاثة فلذلك قدمها عليها ، فالراجح انها جزء على التقديرين خلافا لقول الخطيبي انها ذريعة »(١) • وجرت هذه المقدمة شراح التلخيص الى الخوض في معناها واشتقاقها وما الى ذلك من أمور لا تهم الدارس وجاءوا بكلام أبعد ما يكون عن فن البلاغة ودرسها ، وهذا أمر لا نوافق القزويني عليه ؛ لان الكلمة المفردة هي العنصر الاساسي في عمل فني أداته الكلمة وان البحث فيها ومعرفة خصائصها لمن أوائل ما يبدأ به الدارس في تفهم البلاغة ونقد الكلام • ان البحث في فصاحة الكلمة المفردة والكلام المركب وفصاحة المتكلم لأمر ضروري في دراسة البلاغة ولا يمكن المضي في تحسس مواطن الجمال في الكلام ما لم نول الكلمة الاهتمام اللازم • وكان القدماء أحسن منهجا وأصح تفكيرا حينما درسوا الفصاحة دراسة عميقة واسعة واهتموا بالكلمة اهتماما كبيرا ، ولو مضينا نتصفح كتب البلاغة والنقد منذ القديم لوجدنا الكلمة وفصاحتها تشغل النقاد والمفكرين ، فالجاحظ وهو من اقدم الذين بحثوا في البلاغة أولاها اهتماما ظاهرا وتكلم على تنافر الحروف والكلمات واستحسن ما حقه الاستحسان واستهجن ما بدت الهجنة فيه واضحة للعيان ، وعقد معظم البلاغيين فصولا فيها ، وادار ابن سنان الخفاجي كتابه « سر الفصاحة » على بحث اللفظة الواحدة والكلام في الالفاظ المؤلفة ووضع لها شروطا ، وقسم ابن الاثير « المثل السائر » الى مقالتين : في الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية وتكلم في الاولى على اللفظة المفردة ومتى تحسن وتقبح ، وعلى الالفاظ المركبة كالسجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الالفاظ

(١) عروس الافراح ج ١ ص ٦٧ •

واتفاقها والمعاظلة اللفظية والمنافرة بين الالفاظ في السبك • لقد بحث هؤلاء الفصاحة بحثا مفصلا واداروا عليها كتبهم البلاغية ، ولم ينظروا اليها هذه النظرة الضيقة ، ولم يجعلوها مقدمة لعلم البلاغة ؛ لانها بحث هام من بحوثها وعنصر أصيل من عناصرها •

ولعل الذي دعا القزويني الى جعل الفصاحة مقدمة انه رأى السكاكي لم يهتم ببحثها وانما أشار الى انقسامها الى فصاحة لفظية وفصاحة معنوية بعد انتهائه من بحث البيان وبذلك قتل هذا الفن واحاله رميما • وقد لا يكون السكاكي ملوما في هذا لانه عاش في بيئة اعجمية لا تفقه أمر الفصاحة ولا تعرف لها قيمة ؛ ولانه كان يتتبع خطا عبدالقاهر الذي لم يجعل للفظة المفردة أهمية ومكانة في الكلام ، وانما اهميتها عندما تلتئم مع الكلمات مكونة جملة أو عبارة ، وقد دفعه الى هذا اعجابه بالنَظْم وارجاع كل ميزة للكلام اليه • وقد يكون السكاكي معذورا لهذه الاسباب ، اما القزويني الذي عاش في بيئة عربية وكان مطلعاً على ما كتب بلاغيو هذه البيئة ونقادها فلن نلتمس له العذر ما دام قد حاول ان يغير في بلاغة السكاكي بعض التغيير كما أشار اليه في مقدمة التلخيص والايضاح • وكان السبكي أحد شراح تلخيصه أسلم منهجا واصفى ذوقا عندما اهتم بهذه المقدمة ، وبحث الفصاحة بحثا يعتمد على كتب البلاغة المتقدمة ك « سر الفصاحة » و « المثل السائر » و «الجامع الكبير » وغيرها من الكتب التي أعطت الموضوع حقه وفصلت فيه تفصيلا •

ان دراسة حسن اللفظة من حيث جرسها الصوتي ، ومن حيث أداؤها لمعناها ودلالتها اللغوية وغير ذلك مما يتعلق بدراسة الكلمة الضرورية في دراسة البلاغة ، وقد أولاها الغربيون في العصر الحديث أهمية بالغة فدرسوها دراسة عميقة • واستفاد المعاصرون مما كتب العرب فيها وما نمقه الغرب فأولوا هذا البحث أهمية وقرر الاستاذ الخولي ان أول ما ينبغي دراسته في بحوث البلاغة « الكلمة » ، وقد وضع منهج دراستها من حيث هي عنصر لغوي ومن حيث هي جزء الجملة[1] • واذا اردنا ان نبحث

(١) ينظر فن القول ص ٢١٧ •

الكلمة على منهج الخولي فلن يكلفنا عناء كبيرا لان العرب تكلموا عليها ، وليس لنا الا ان نعود الى الكتب القديمة نستخلص منها ما يخص الكلمة بأوضاعها المختلفة وننظر في الدراسات النقدية الحديثة لنضم القديم الى الجديد ونخرج منها دراسة نقدية تكون ذات قيمة في الدراسات الجديدة •

ولاهمية دراسة الفصاحة والكلمة لا نرى لعمل القزويني معنى في جعلها مقدمة واخراجها من مقاصد البلاغة ؛ لان الكلمة المفردة عنصر أساسي في عمل فني اداته الكلمة ، ولانها من مقاصد الفن البياني لا من مقدماته ، ولكننا مع ذلك نستطيع ان نستفيد مما كتبه عن الفصاحة وصفات الكلمة ونضمه الى ما كتب غيره من النقاد •

أما موضوعات البلاغة فقد قسمها الى ما يحترز به عن الخطأ وهو علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي وهو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته وهو علم البديع • وقد عرف المعاني بقوله : « هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال »[1] ، وسار على منهج السكاكي في تقسيم بحوثه مع اختلاف بسيط في بعض القضايا ، وحصره في ثمانية أبواب هي : أحوال الاسناد الخبري ، وأحوال المسند اليه ، وأحوال المسند ، وأحوال متعلقات الفعل ، والقصر ، والانشاء ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة • ووجه الحصر ان الكلام اما خبر أو انشاء ؛ لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج • الاول الخبر والثاني الانشاء ، ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند ، وأحوال هذه الاضرب الثلاثة هي الابواب الثلاثة الاولى • ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو في معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع • ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس • والانشاء هو الباب السادس • ثم الجملة اذا قرنت بأخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الاولى أو غير

---

(١) الايضاح ص ١٢ •

معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن[1] .

بهذا الاسلوب حصر القزويني بحوث علم المعاني وهو حصر لا نرى فيه فائدة كبيرة ؛ لان الفن الادبي لا يحصر هذا الحصر ولا يحد بهذه الحدود العقلية ، وان تقسيمه الكلام الى خبر وانشاء لا نرى له فائدة في البلاغة لانه بحث فلسفي أخذه البلاغيون عن أصحاب المنطق ، وقد عرض ارسطو لاساليب الخبر والطلب في بحوثه المنطقية ، وذكر في كتاب «المقولات» ان الجمل الموجبة أو السالبة هي المحتملة للصدق والكذب ، وأما الالفاظ غير المؤلفة فليس شيء منها صادقا ولا كاذبا كأبيض ويحضر ويظفر ، وذكر في كتاب « العبارة » انه ليس كل كلام بجازم وانما الجازم القول الذي وجد فيه الصدق أو الكذب وليس ذلك بموجود في الاقاويل كلها ، ومثال ذلك الادعاء فانه قول ما ، لكنه ليس بصادق ولا كاذب[2] .

وأخذ البلاغيون هذه القضايا مسلما بها مع ان ارسطو نفسه لا يرى في دراسة الامر والرجاء والاستفهام فائدة أو قيمة في فن الشعر وانما هي أمور تتعلق بالممثل والخطيب ، ولاجل هذا يرى انه لا قيمة حقيقية للنقد الذي يوجه الى الشاعر بانه يعرف أو يجهل هذه الامور ، يقول : « اذ كيف نسلم باللوم الذي وجهه فروتاغوراس الى هوميروس بانه ساق العبارة في صيغة الامر وهو يعتقد انه رجاء حين قال : « انشدي ايتها الربة في غضبة » . اذ قال فروتا غوراس : « ان القول بفعل كذا أو عدم فعله هو أمر ، ولهذا يجب علينا ان نطرح هذه المسألة جانبا لانها من شأن علم آخر وليست من شأن فن الشعر »[3] .

وأحس القدماء أنفسهم بهذا فقالوا بعد هذا الحصر تعليقا على كلمة القزويني ان الخبر لابد له من مسند اليه ومسند واسناد ، والمسند قد يكون

---

(١) ينظر الايضاح ص ١٣ .
(٢) منطق ارسطو ج ١ ص ٦ ، ٦٣ .
(٣) فن الشعر ص ٥٤ .

له متعلقات اذا كان فعلا أو في معناه ، وقالوا انه لا وجه لتخصيص هذا الكلام بالخبر لان الانشاء لابد له مما ذكر أيضا[1] . وحاول الدسوقي ان يصحح تعبير القزويني فقال : « فكان على المصنف ان يقول : وكل من الخبر والانشاء لابد له من مسند[2] » . ولن يفيد هذا التعليل في التخلص من اضطراب القزويني في هذا الحصر وتقسيم الكلام الى خبر وانشاء ؛ لان القدماء انفسهم لم يتفقوا عليه فيرى بعضهم ان الكلام أنواع كثيرة ، يقول السبكي : « وذكر المصنف حصر الكلام في الخبر والانشاء وهو كذلك ، الا ان منهم من يخص الانشاء بما لا طلب فيه ويقسم الكلام الى خبر وطلب وانشاء ، ومنهم من يجعله ثلاثة أقسام : خبر ، وانشاء وهو ما دل على الطلب دلالة أولية ، وتنبيه ويدخل فيه الاستفهام والتمني والترجي والقسم والنداء وهو اصطلاح الامام فخرالدين . قلت : ومنهم من يجعل الكلام خبرا وطلبا وهو ابن مالك في الكافية ، ومنهم من يربع الاقسام فيقول : خبر واستخبار ، وطلب وانشاء »[3] .

وتقسيم القزويني للكلام الى خبر وانشاء أقرب هذه الاقسام الى الدقة كما نرى ، ولكننا مع ذلك لانريد للمجددين أن يقسموه هذا التقسيم ؛ لان هذا عمل فلسفي لا يجدي نفعا وقد أخذه البلاغيون من أهل المنطق وعلى رأسهم أرسطو ، ونرى ان يلغى هذا التقسيم لان الانشاء فرع من الخبر والى ذلك أشار السبكي وهو يعلل تقديم الخبر عليه ، يقول : « وانما قدم الخبر لانه أكثر بحثا ولان كثيرا من الانشاء فرع عن الخبر كالجملة التى يدخل عليها ليت ولعل والاستفهام »[4] . وقد أشار عبدالقاهر الى ان ما يحصل للانشاء يكون للخبر ، يقول : « واعلم ان معك دستورا لك فيه ان تأملت غنى عن كل ما سواه ، وهو انه لا يجوز ان يكون لنظم الكلام وترتيب اجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر وذاك ان

---

(١) المختصر ج ١ ص ١٧٠ ، وحاشية الدسوقي ج ١ ص ١٧٠ .
(٢) حاشية الدسوقي ج ١ ص ١٧٠ .
(٣) عروس الافراح ج ١ ص ١٧٢ .
(٤) عروس الافراح ج ١ ص ١٧٢ .

الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب ان يخبرك ، فاذا كان كذلك كان محالا ان يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى اذا قلت : «أزيد قام ؟» غيره اذا قلت : «أقام زيد ؟» ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر ، ويكون قولك : « زيد قام » و « قام زيد » سواء »[1].

ويقول في موضع آخر : « واذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابن الخبر عليه »[2] . وأحس القزويني نفسه بان هذا التقسيم غير مجد في بحث البلاغة ، لذلك تكلم على الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة بعد أن تكلم على الخبر والانشاء ؛ لانها لا تخص واحدا منهما ، وانما هي من صفاتهما معا ، ولكنه كان لابد ان يتحدث عن الخبر والانشاء أولا ، ثم يشرع في بحث ما يحدث لهما من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وقصر ، وفصل ووصل ، وايجاز واطناب ومساواة ، وغيرها من الموضوعات التى ادخلها في علم المعانى ، وبذلك يسلم منهجه من الاضطراب .

واختلف القدماء في انحصار الخبر في الصادق والكاذب فذهب معظمهم الى انه منحصر فيهما ثم اختلفوا فقال الاكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، ولعل النظام استاذ الجاحظ كان من اوائل الذين تحدثوا عن الخبر والطلب ، وحددوا معناهما وضبطوهما بمقياس الصدق والكذب ، يقول : ان صدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، فقول القائل « السماء تحتنا » معتقدا ذلك صدق ، وقوله « السماء فوقنا » غير معتقد كذب[3] . واحتج لهذا الرأي بوجهين :

أحدهما : ان من اعتقد أمراً فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب . ولكنه أخطأ ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت فيمن شأنه كذلك : « ما كذب ولكنه وهم » .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٨ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٩ .
(٣) المطول ص ٣٩ .

والثاني : قوله تعالى « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » كذبهم في قولهم « انك لرسول الله » وإنْ كان مطابقا للواقع لانهم لم يعتقدوه .

وأجاب القزويني عن هذا الكلام بوجوه :

أحدها : ان المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه « ان » و « اللام » ، وكون الجملة اسمية في قولهم «انك لرسول الله» فالتكذيب في قولهم « نشهد » وادعائهم فيه المواطأة لا في قولهم « انك لرسول الله » .

وثانيها : ان التكذيب في تسميتهم اخبارهم شهادة ؛ لان الاخبار اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة .

وثالثها : ان المعنى لكاذبون في قولهم « انك لرسول الله » عند أنفسهم لاعتقادهم انه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه[1] .

وانكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين وزعم انه ثلاثة أقسام : صادق وكاذب وغير صادق ولا كاذب ، لان الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر او عدمه ، وأما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه . فالاول أي المطابق مع الاعتقاد هو الصادق ، والثالث اى غير المطابق مع الاعتقاد هو الكاذب ، والثاني والرابع أي المطابق مع عدم الاعتقاد وغير المطابق مع عدم الاعتقاد ، وكل منهما ليس بصادق ولا كاذب ، فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب مع عدم اعتقاده ، وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع اعتقاده واحتج بقوله تعالى : « افترى على الله كذباً أم به جنة » فانهم حصروا دعوى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة في الافتراء والاخبار حال الجنون بمعنى امتناع الخلو وليس اخباره حال الجنون كذباً ، لجعلهم الافتراء في مقابلته ولا صدقاً ؛ لانهم لم يعتقدوا صدقه فثبت ان من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب[2] .

ولم يَجُرِ القزويني الى هذا الحديث الا تقسيمه الكلام الى خبر

---

(١) الايضاح ص ١٤ .

(٢) الايضاح ص ١٤ ـ ١٥ .

وانشاء ، وانحصار الخبر في الصدق والكذب أو في غيرهما • وبالغاء هذا التقسيم نخلص من هذه الامور الغريبة في البلاغة ونخليها من كل ما يعيقها عن أداء مهمتها وهي نقد الكلام واظهار ما فيه من روعة وجمال ، أو اسفاف وابتذال ، وليس من الصحيح ان نعتمد في بحث المعاني على ركني الجملة لان هذا يؤدي الى توزيع موضوعاته في أبواب متفرقة ، فالتقديم مثلا بحثه في المسند اليه مرة وفي المسند تارة اخرى ، وكان عليه ان يلم شتات الموضوع الواحد فيبحث التقديم والتأخير في فصل واحد ، والحذف الذكر في فصل آخر ،والتعريف والتنكير في ثالث وهكذا • ولا تخص هذه الموضوعات الخبر وحده ، وان بحثها في الاسناد الخبرى غير صحيح مع انه اعترف بان ما في هذه الابواب ليس كله مختصا بالخبر بل كثير منه حكم الانشاء فيه حكم الخبر[1] • ويقول التفتازاني : « ان الاسناد الانشائي ايضا اما مؤكد أو مجرد عن التأكيد ، وكذا المسند اليه اما مذكور أو محذوف ، مقدم أو مؤخر ، معرف أو منكر ، الى غير ذلك ، وكذا المسند اسم أو فعل مطلق أو مقيد بمفعول أو بشرط أو بغيره ، والمتعلقات اما متقدمة أو متأخرة ، مذكورة أو محذوفة ، واسناده وتعلقه أيضا اما بقصر أو بغير قصر ، والاعتبارات المناسبة في ذلك مثل ما مر في الخبر ، ولا يخفى عليه اعتباره بعد الاحاطة بما سبق »[2] •

ولكن القزويني سحر بالسكاكي مع ما في منهجه من اضطراب ، وسار عليه من غير ان يحاول اصلاحه ، الا ما كان من ملاحظات لا تبعد البلاغة عن جوهر منهج السكاكي •

اما علم البيان فقد حصره بقوله : « هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »[3] • واستفاد من الدلالات العقلية في حصر مباحثه فقال بعد ان تكلم على دلالة اللفظ وانواعها : « ثم ايراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية لان السامع

(١) الايضاح ص ١٤٧ •
(٢) المطول ص ٢٤٦ •
(٣) الايضاح ص ٢١٢ •

ان كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض والا لم يكن كل واحد منها دالاً وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز ان يكون للشيء لوازم بعضها أوضح لزوما من بعض »[1] . وقسمه على هذا الاساس الى قسمين : المجاز والكناية ، وادخل التشبيه فيه وقدمه ، لان الاستعارة مبنية عليه ، وقدم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل ، وبذلك ضيق القزويني مباحث البيان كما ضيقها السكاكي من قبل . وقد كان من الممكن ادخال صور بيانية اخرى تكلم عليها المتأخرون في البديع كالتجريد والقلب واسلوب الحكيم والمبالغة والتورية والاستخدام وغيرها من صور التعبير التي ذكرها الخولي في مباحث فن القول[2] . فتحديد فنون البيان على هذه الصورة لا يفيدنا في دراستنا الحديثة ؛ لان الفن أوسع من هذا التحديد وأبعد من هذه التمحلات العقلية .

وقسم كل فن من هذه الفنون الى أنواع كثيرة يتيه فيها الدارس ولا يخرج بنتيجة ، وأغلب هذه التقسيمات عقلية لا علاقة لها بالفن البلاغي حتى ان عصام الدين صاحب الشرح الاطول يرى ان تقسيم التشبيه للتمثيل وغيره من تقسيم الشيء الى نفسه والى غيره ؛ لان التمثيل يرادف التشبيه كما يشهد لذلك كلام صاحب الكشاف حيث يستعمله استعمال التشبيه[3] . وحاول الدسوقي ان يدافع عن القزويني فقال : « واجيب بان التمثيل مشترك بين مطلق التشبيه وبين ما هو أخص منه ، فما هو مقسم المعنى الاعم والقسم هو المعنى الاخص وحينئذ فلا اشكال »[4] .

ومما يؤاخذ عليه القزويني الى جانب هذه التقسيمات اخراجه المجاز العقلي من علم البيان وبحثه في المعاني على اعتبار ان الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي ، وهو رأي لا نوافقه عليه ، لان انواع المجاز الاخرى لا تخرج عن المسند والمسند اليه ، وكان لزاما عليه ان يبحثها في علم المعاني . ونرى ان نضم المجاز العقلي الى بحث المجاز اللغوي ليكون موضوعا

(١) الايضاح ص ٢١٢ .
(٢) فن القول ص ٢٢١ .
(٣) الاطول ج ٢ ص ٩٩ .
(٤) حاشية الدسوقي ج ٣ ص ٤٣٢ .

واحدا له اهدافه في التعبير ، ولن يجدى تعليل عصام الدين في عدوله عن ترتيب السكاكي حيث يقول : « وقد عدل المصنّف عن ترتيب المفتاح حيث قدم المجاز العقلى لانه المقصود بالبيان في فن البلاغة المشار اليه بالبنان لان تقديم المجاز العقلى يوجب فصلا كثيرا بين الحقيقة والمجاز لكثرة ما يتعلق بـه »[١] ـ نقول لن يجديه هذا التعليل لان انواع المجاز الاخرى أهم من المجاز العقلى الذى نظمه السكاكي في سلك الاستعارة بالكناية ، ولكننا مع هذا كله نستطيع ان نستفيد من تقسيمات القزويني لمباحث علم البيان لانطباق كثير منهـا على الاساليب العربية ، وان كنـا لا نؤمن بكثير من توجيهات القزوينى لامثلة التشبيه والاستعارة والكناية ، وبتعليقاته على هذه الفنون .

اما البديع فقد قال عنه انه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[٢] . وقسمه الى ضربين : ضرب يرجع الى المعنى ، وضرب يرجع الى اللفظ ، وتكـلم على سبعة واربعين فنا من هذين الضربين . ومبلغ تجديد القزويني فيه انه جعـله علما مستقلا عن المعاني والبيان ، وسار البلاغيون على خطاه ولم ينظروا اليه نظرة صادقة ؛ لانه يأتي بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وبعد ايـراده بطرق مختلفة وبذلك يكون البديع تابعا للمعانى والبيان . ومع ان السبكى سار على خطا القزوينى في هذا التقسيم غير انه نقده قائلا : « والحق الذى لا ينازع فيه منصف ان البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة وان كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الايراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين . وأدل برهان على ذلك أنّك لا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والايراد ، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان هذا هو الانصاف وان كان مخالفا لكلام الاكثرين »[٣].

---

(١) الاطول ج ١ ص ٧١ .
(٢) الايضاح ص ٣٣٤ .
(٣) عروس الافراح ج ٤ ص ٢٨٤ .

وبذلك يكون البديع فنا له أثره في التعبير وليس تابعا للفنون الاخرى •

وتقسيمه البديع الى محسنات لفظية ومعنوية غير دقيق ؛ لان اكثر هذه المحسنات متداخل وقد تنبه القدماء الى ذلك فقال المغربي وهو يشرح كلام القزويني ان المحسن المعنوى منسوب الى المعنى بالذات بمعنى ان ذلك التحسين قصد ان يكون تحسينا للمعنى وذلك بالقصد بكونه تحسينا للفظ فيكون ثانيا وبالعرض ، وانما قلنا هكذا لان هذه الاوجه قد يكون بعضها محسنا للفظ لكن القصد الاصلى منها انما هو الى كونها محسنة للمعنى كما في المشاكلة اذ هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير كقوله :

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه   قلت : اطبخوا لي جبة وقميصا

فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته ، فاللفظ حسن لما فيه من ايهام المجانسة اللفظية ؛ لان المعنى مختلف واللفظ متفق ، لكن الغرض الاصلى جعل الخياطة كطبخ المطبوخ في اقتراحها لوقوعها في صحبته وان تعلق الغرض بتحسينه اللفظي المشار اليه فهو بالعرض على وجه المرجوحية• وقيل : ان الحسن فيه لفظي لان منشأه اللفظ ، وكما في العكس في قولهم : « عادات السادات سادات العادات » فان في اللفظ شبه الجناس اللفظي لاختلاف المعنى ففيه التحسين اللفظي والغرض الاصلى الاخبار بعكس الاضافة مع وجود الصحة • واللفظي تحسين للفظ بالذات وان يتبع ذلك تحسين المعنى لانه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسن معناه تبعا ، وان شئت قلت في التحسين المعنوي ايضا ان كونه بالذات معناه ان ذلك هو المقصود ويتبعه تحسين اللفظ دائما لانه كلما افيد باللفظ معنى حسن تبعه حسن اللفظ الدال عليه(١) •

فالمعنوي راجع الى تحسين المعنى أولا وبالذات ولكنه يفيد تحسين اللفظ كما في مثال المشاكلة المتقدم ، واللفظي راجع الى تحسين اللفظ أولا وبالذات ولكنه يفيد تحسين المعنى ايضا ، وما دام الامر كذلك فاية فائدة في هذا

---

(١) مواهب الفتاح ج ٤ ص ٢٨٥ •

التقسيم الثنائي للبديع أو التقسيم الثلاثي الذي ذكره بدرالدين بن مالك في المصباح • ان أى نوع من فنون البديع لا تكون له قيمة الا اذا كان المعنى يتطلبه ويستدعيه ، يقول عبدالقاهر : « انك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيسا مقبولا لا تبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا • ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه واعلاه واحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد المتكلم الى اجتلابه وتأهبه لطلبه أو ما هو لحسن ملاءمته وان كان مطلوبا بهذه المنزلة وفي هذه الصورة[1] ». • ويقول القزويني : « وأصل الحسن في جميع ذلك ـ أعنى القسم اللفظى ـ كما قال الشيخ عبدالقاهر هو ان تكون الالفاظ تابعة للمعانى فان المعانى اذا ارسلت على سجيتها وتركت وما تريد طلبت لانفسها الالفاظ ولم تكتسِ الا ما يليق بها فان كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب :

اذا لم تشاهدْ غيرَ حسنِ شياتها ... واعضائها فالحسنُ عنك مُغَيَّبُ

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بامور ترجع الى ما له اسم في البديع على ان ينسى انه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ويخيل اليه انه اذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير ان يقع ما عناه في عمياء وان يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء[2] » •

وهذه التفاتة طيبة منه ، ولكنه لم يطبق ما دعا اليه وظل يدور في فلك السكاكي وما رسمه للبلاغة ، وانا لنرفض هذا التقسيم وندعو الى ان تبحث موضوعات البديع كما تبحث فنون البلاغة الاخرى على ان تهمل الانواع التي ليس لها تأثير في التعبير ولا تبعث في الكلام رونقا وطلاوة وتضفى عليه جمالا وبهاء ، ويرتب ما يبقى منها ويهذب بحيث يكون مناسباً للاساليب العربية وكلام البلغاء • ولا ناتى بجديد اذا ما قررنا هذا ، فابن المعتز ـ مثلا ـ بحث فنون البديع الى جانب الاستعارة والتشبيه ، وأبو هلال

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٥ •

(٢) الايضاح ص ٤٠٠ •

وابن رشيق وابن سنان وابن الاثير بحثوا البديع كما بحثوا الاستعارة والكناية والتقديم والتاخير ، ولم يفرقوا بين محسن معنوى واخر لفظى فما كان له روعته أثبتوه وبحثوه وما كان مجردا عن ذلك كله تركوه ، ولذلك نرى ان يعاد النظر في فنون البديع التى ذكرها القزوينى وغيره من المتأخرين فيؤخذ منها ماله قيمة في التعبير ويترك ما كان لعبا بالالفاظ أو تعمية والغازاً يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي : « ينبغي ان يؤسس البديع أولا وقبل كل شيء على الدراسة النفسية التي تهدي الى بيان السر في تأثير لون بديعى دون الدراسة الصورية وتلمس الاقسام العقلية التي لا تزيد ثروة الاحساس والشعور ، وان نؤمن بان المعنى هو الذى يقود العبارة الى صورتها ، وان كل محسّن بديعي لا يكون له نصيب من الجمال الا اذا كان المعنى هو الذى يتطلبه ويؤدى اليه ، أما التلاعب بالالفاظ وبذل الجهد للاغراب في الصناعة فمما لا يسعى اليه أديب فنان ولهذا نضرب صفحا عن كل مثال صنع مجتلبا ليصور لونا من ألوان البديع دون أن ينبض بالحياة ويزخر بالعاطفة ومن غير ان تكون هذه الصناعة قد جاءت ؛ لان المعنى وحده هو الذى تطلبها من ناحية انها تصور الاحساس النفسي[1] » .

ولما كانت صور البديع هامة في التعبير والاداء فليس من الصحيح تركه واهماله ، وان ما كتبه القزويني يمكن ان يعد نموذجا لدراسته مع التوسع في العرض والامثلة والتحليل ، أما الانواع الكثيرة التي ذكرها المتأخرون فنأخذ منها ما اتفق وذوق العربية ونترك ما كان عبثا ولغواً على شرط ان لا نقسمها كما قسمها السكاكي والقزوينى أو كما قسمها بدر الدين بن مالك ، وتبحث اما في موضوع اللفظ والمعنى فنثبت في صفات الالفاظ ما كان قريبا اليها أو شديد الصلة بها ونضع في صفات المعانى ما يخص المعنى بالدرجة الاولى ، وان تقسيم القزويني ليسهل لنا هذه المهمة ، فما كان من المحسنات اللفظية ادخل في بحث الالفاظ وما كان من صفات المعاني أدخل في بحث المعاني ،ولنا فيما كتبه قدامة بن جعفر اسوة حسنة

---

(١) مقدمة كتاب ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ص : ز .

في هذا الميدان ، وبذلك نخلص البديع من تمحلات القدماء ونقاشهم في الحسن العرضي والذاتي ، أو ان نوزعه كما وزعه الاستاذ الخولي فنذكر الجناس والسجع والترصيع والتصريع ورد العجز على الصدر ولزوم ما لا يلزم في بحث تناسب الصوت والمعنى ، ونضع الطباق في بحث النظم أو تأليف الجمل وذلك حين تتقابل معاني اجزاء الجملة أو الجمل فيكون لذلك أثر في حسن الكلام ، ونضع القسم الآخر في صور التعبير وهي قسمان : صور الايضاح المعلن كالتشبيه والاستعارة والكناية والتجريد والقلب واسلوب الحكيم والمبالغة وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتدبيج والتهييج والالهاب والتهكم بجملة والفكاهة في جملة والتجاهل ، وصور التعبير المظللة كالرمز والايماء والالغاز والتورية والاستخدام والاتساع[1] .

وختم القزويني كتابه بفصلين في السرقات وما يتصل بها ، والقول في الابتداء والتخلص والانتهاء ، وقد حيّر شراح التلخيص بهذه الخاتمة فذهب بعضهم الى انها خاتمة الكتاب كله فهي بذلك خارجة عن الفنون الثلاثة كالمقدمة ، وذهب آخرون الى انها خاتمة للفن الثالث معتمدين على قول القزويني في الايضاح « هذا ما تيسر باذن الله تعالى جمعه وتحريره من اصول الفن الثالث وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين ، منها ما يتعين اهماله لعدم دخوله في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ مع انه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط وكون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى الترديد ، أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه ، كما سماه الايضاح فانه في الحقيقة راجع الى الاطناب أو خلط فيه كما سماه حسن البيان ، ومنها ما لا بأس بذكره لاشتماله على فائدة وهو شيئان :

أحدهما : القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها .

والثاني : القول في الابتداء والتخلص والانتهاء .

---

(١) فن القول ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .

فعقدنا فيهما فصلين ختمنا بهما الكتاب »[1] .

وعلل المغربي جعلها خاتمة لا باباً في البديع بقوله : « وانما جمع هذه الاشياء في الخاتمة ولم يجعلها باباً من البديع أو يجعل كل واحد منها بابا على حدة لوجهين .

أحدهما : ان كلا منها ليس أمرا يعم كل كلام ويغلب مكان جريانه في كل موطن ، أما فى السرقات فظاهر لخروج النثر وكذا فيما يتصل بها لاختصاصها بالاخذ عن الغير ، واما في الابتداء والانتهاء والتخلص فلخروج ما ليس في تلك المحال وهذا الوجه بعينه يمكن ان يجعل هو السر في جمعها لاشتراكها فيه .

والوجه الثاني : ان الحسن فيها دون الحسن في غيرها مع سهولة التناول فلم تجعل باباً لقلة الاهتمام بشأنها ويسرها باعتبار غيرها وان كان الناس يهتمون بامورها . اما في السرقات فلما علم من ان الابتداع أرفع واصعب من الاتباع وان كان فيه تغيير ما ، وكذا فيما يتصل بها ، واما في الابتداء وما والاه فلما علم من ان رعاية تمام الحسن في جميع اجزاء الكلام أعلى وأصعب ويمكن جعل هذا أيضا هو السر في جمعها[2] » .

ومهما يكن من شيء فلا نوافق القزويني فى جعل السرقات خاتمة لعلم البديع أو للبلاغة كلها لانها فن واسع له أثره وقيمته في الدراسات النقدية وقد أولاها علماء البلاغة والنقد اهتماما عظيما قبل القزويني وأفردوا لها كتبا خاصة وعقدوا فصولا كبيرة في كتبهم ، وانه لمن المفيد ان يفرد لهذا الموضوع باب واسع في الدراسات البلاغية والنقدية وان يستعان بما ذكر القزويني ونقاد العرب ، **ومثل هذا يقال فى حسن الابتـــداء** والتخلص والانتهاء فهي فنون قائمة بذاتها وقد أحسن الاقدمون كابن الاثير بحثها ونظروا اليها نظرتهم الى سائر الفنون البلاغية .

واذا ما اتضح هذا جليا فاننا لن نستفيد كثيرا من منهج القزويني في

---

(١) الايضاح ص ٤٠١ .

(٢) مواهب الفتاح ج ٤ ص ٤٧٥ .

البلاغة لاننا لا نؤمن بهذا التقسيم الثلاثي أو الثنائي لاضطرابه وتداخل الموضوعات • ويتضح هذا الاضطراب والتداخل في عدم استقرار بعض الموضوعات فهي من المعاني عند بعضهم ومن البيان أو البديع عند آخرين ، فالمجاز العقلي بحثه السكاكي في علم البيان وان انكره ، وتكلم عليه القزويني في علم المعاني وذكر ان الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي ، ورد على السكاكي ؛ لانه نظم المجاز العقلي في سلك الاستعارة بالكناية وعلل سبب ذكره في المعاني بقوله : « اننا لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف البيان[1] » •

ومنهج القزويني أسلم من منهج السكاكي لانه حاول ان يجمع الاشباه وينسق الموضوعات فتحدث عن الايغال والتتميم والتكميل والاعتراض والالتفات في علم المعاني ولم يعدها في علم البديع كما فعل السكاكي حيث ذكر الالتفات في المعاني مرة وفي البديع تارة اخرى ، ومع ذلك فقد جزأ موضوعات التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، وبحثها في اكثر من باب وكان من الدقة المنهجية ان يلم شتاتها ويجمعها في فصول متناسقة فيعقد لكل منها فصلا ، وانه لحسن من القدماء ان ينتبهوا الى انه لاحد بين المعاني والبيان وقد جعل السكاكي الثاني شعبة من الاول ، يقول : « ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل الا بزيادة اعتبارجرى منه مجرى المركب من المفرد ، لاجرم آثرنا تأخيره »[2] فالسكاكي يقرر ان البيان شعبة من المعاني ولا ينفصل عنه الا بزيادة اعتبار ولكنه لم يوضح هذه الزيادة • وعلى كل حال فهذا اعتراف منه بان لا حاجة الى فصل المعاني عن علم البيان ؛ لانهما مرتبطان أشد الارتباط ، متداخلان أعظم التداخل ، وقد أشار السبكي الى هذا التداخل فقال : « ان علم البيان باب من أبواب المعاني وفصل من فصوله وانما افرد كما يفرد علم الفرائض

---

(١) الايضاح ص ٣١ •

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧ •

عن الفقه »[1] ، وقال متحدثا عن اتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر : « لعلك تقول غالب ما سبق أو كله من أنواع المجاز ومحله علم البيان كما سيأتي . فالجواب ان الامر كذلك ولكن جرت عادة اكثرهم بذكر هذه الانواع في هذا العلم فتبعناهم ، وتداخل علم البيان وعلم المعاني كثير[2] » . ولن يفيدهم قولهم « ان البيان جرى من المعاني مجرى المركب من المفرد » ؛ لانهم اقروا بانهما متداخلان ، وان علم البيان شعبة من علم المعاني وقد صرح القزويني بهذا واعترف ان كثيرا من الناس يسمى المعاني والبيان والبديع « علم البيان » وبعضهم يسمى الاول « علم المعاني » والثاني والثالث « علم البيان » والثلاثة « علم البديع »[3] . وهذه عودةالى منهج الاوائل الذين نظروا الى البلاغة نظرة واسعة واعتبروها فنا واحدا ، ولكن القزويني أبى الا ان يتابع السكاكي في التقسيم ويغرق معه في التمحل والتأويل .

هذا ما نراه في منهج القزويني ، اما مادة بلاغته فمنها ما ينبغي تركه، ومنها ما يمكن الاستفادة منه في بناء صرح البلاغة العربية الجديدة . فما الذي ينبغي أن نطرحه وما الذي يجب ان نأخذه ونستفيد منه ؟

٣

ولقد أثرت الفلسفة وعلم الكلام في كل جانب من جوانب الحياة الثقافية ولم يسلم منها علم من علوم العربية واستفاد المؤلفون منها في مناهج بحثهم وأخذوا مصطلحاتها وعباراتها وادخلوها في كتبهم وهذا أمر طبيعي بعد ان استقر العرب وبنوا دولتهم العظمى واتصلوا بغيرهم من الاقوام والامم ، وكان نصيب البلاغة فيها عظيما ، وبدأ الاتصال بين البلاغةوالفلسفة منذ عهد مبكر وازداد هذا الاتصال بمرور الايام حتى أصبح ارتباطا وثيقا

---

(١) عروس الافراح ج ١ ص ٢٦١ .
(٢) عروس الافراح ج ١ ص ٤٩٣ .
(٣) الايضاح ص ١٢ ، والتلخيص ص ٣٧ .

لا انفصام له على يد رجال البلاغة المتأخرين كالسكاكي والقزويني وشراح التلخيص ، وكان نتيجة هذا الاتصال والارتباط ان زخرت كتب البلاغة بمباحث الفلسفة والمنطق وعلم الكلام حتى ان الباحث ليستطيع ان يستخلص مادة فلسفية غزيرة من كتب البلاغة المتأخرة • ومع ان البلاغيين استفادوا من هذه العلوم في تحديد منهجهم ورسم مصطلحاتهم غير ان البلاغة لتأبى كل الاباء ان تكون خاضعة لعلوم غريبة عنها ، دخيلة عليها ؛ لانها فن من الفنون ، والفن حر يقبل التطور والتجديد وينطلق الى أبعد الغايات • وقد كان هذا شأن البلاغة والنقد قبل أن يسيطر عليها منهج السكاكي وقد زخرت الكتب بكل طريف عماده الذوق والتربية الفنية ، وذهب المؤلفون في بحوثهم مذاهب شتى وطوفوا في آفاق نقدية بعيدة المدى ، ولكن المتأخرين أسرفوا في اقتباس العقليات وأغربوا في استخدام مصطلحات المناطقة وأساليبهم فصارت البلاغة على يدي السكاكي والقزويني ومن لف لفهما ألغازا ومعميات يتسابق الدارسون الى حل مشكلة من مشاكلها ويعدون تفهمها عملا عظيما يجيزون به العلماء ويقدرون الخريجين حين يستطيعون أخذ معنى من عبارة ويبينون مرجع ضمير ومشارا اليه في اشارة او مضافا محذوفا • وما كان لهذه الكتب ان تبلغ هذا المبلغ لولا استخدام الاساليب الغريبة عن البلاغة واقحام مباحث بعيدة كل البعد عنها كتلك التي حشروها في بحث الخبر والانشاء ، والوصل والفصل ، وتقسيم مباحث علم البيان ، ولم يكن من السهل اليسير ان ينجو القزويني من هذه السيطرة وقد عاش في فترة جنحت فيها الحياة الفكرية الى الجمود واصبح المؤلف لا يعيش الا على فتات الآخرين • وقد كان مفتاح العلوم ومنهجه مسيطرا على التفكير البلاغي وقتئذ فاتجه القزويني يتلمس البلاغة على ضوئه ويسلك في بحثها مسلكا لا يكاد يختلف عن منهج السكاكي الا قليلا • ومع ان القزويني عاش في بيئة عربية هي بيئة مصر والشام التي يقول السبكي فيها وهو يتحدث عن شروح التلخيص : « اما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والأذهان التي هي

أرق من النسيم والطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم • اكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار اليهم باصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ـ فضلا عن الاغمار ـ الاعمار ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الاسرار خلف الاستار[١] » نقول مع انه عاش في هذه البيئة غير انها لم تؤثر فيه ولم تكسبه هذه الطلاوة ، فعكف على ما كتبه السكاكي يهذبه ويبوبه لعله يقدم للدارسين ما فيه النفع وانارة السبيل •

ويجد الباحث في كتابي القزويني الفلسفة وأساليب المناطقة ومصطلحاتهم ماثلة امامه مما يعيق سبيل الانتفاع من بلاغته في صقل الاذواق وتربيتها ، وقد اعترف القزويني نفسه ان بعض مسائل البلاغة باصول الفلاسفة أشبه[٢] • واذا ما اردنا ان نستفيد مما كتب القزويني وشراح تلخيصه فليس لنا الا ان نخليها مما لا فائدة فيه ، ومن ذلك حديثه عن المَلَكَة وهي « قسم من مقولة الكيف التى هى هيئة قارة لا تقتضي قسمة ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الانفس راسخ في موضوعه[٣] » • ولا تفسر الملكة هذا التفسير الغامض ، وأنى لطالب الفن الادبى أن يفهم هذا التعريف أو هذا الكلام ؟ وقد حاول شراح تلخيصه ان يفسروا هذا القول فاسرفوا في الاغراب وجاءوا بكل ما يأباه الذوق الادبي وتنفر عنه الطباع السليمة والنفوس الصافية ، وشرعوا في تفسير الكيف فقال عصام الدين : « وأحسن ما رسم به الكيف عرض لا يتوقف تصوره على تصور غيره ولا يقتضي القسمة واللاقسمة في محله اقتضاء أوليا[٤] » • وأسرف الدسوقي في شرح هذا الكلام اسرافا عظيما ، يقول ان المتكلمين حصروا الموجودات الحادثة فى الجوهر والعرض وقسم الحكماء العرض على أقسام تسعة وهى الكم والكيف والاضافة والمتى والاين والوضع والملك والفعل والانفعال وسموا

---

(١) عروس الافراح ج ١ ص ٥ •

(٢) الايضاح ص ١٠٠ •

(٣) الايضاح ص ٩ •

(٤) الأطول ج ١ ص ٢٨ ، وينظر المطول ص ٢٤ •

هذه التسعة مع الجوهر المقولات العشر أي المحمولات العشرة وقسموها الى نسبية وغير نسبية ، فغير النسبية الجوهر والكم والكيف وما عدا هذه الثلاثة فهو نسبة يتوقف تعقلها أى تصورها على تعقل الغير وتصوره(١) . ويمضى في شرح هذه المصطلحات ناسيا انه يبحث في البلاغة أو فن القول .

وادخل من الفلسفة الادبية الكلام على الصدق والكذب يقول : « اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب فذهب الجمهور الى انه منحصر فيهما ثم اختلفوا فقال الاكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع وكذبه عدم مطابقة حكمه له . هذا هو المشهور وعليه التعويل(٢) » . وعرض رأى النظام والجاحظ وناقشهما وكان هذا ميدانا رحبا لشراحه فصالوا وجالوا فيه وأفاضوا في شرح قوله : « ووجه الحصر ان الكلام اما خبر أو انشاء لانه اما ان يكون لنسبته خارج تطابقه أولا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج ، الاول الخبر والثانى الانشاء » ، وحشروا مذهب الحكماء والفلاسفة فيه .

وخاض الدسوقي في بحث النسب وقسمها الى ثلاثة : كلامية وذهنية وخارجية ، فالاولى تعلق أحد الطرفين بالآخر المفهوم من الكلام ، وتصورها وحضورها في ذهن المتكلم هو النسبة الذهنية ، وتعلق أحد الطرفين بالاخر في الخارج خارجية . ومضى يضرب الامثلة على ذلك ويشرحها شرحا بعيدا عن البلاغة ونقد الكلام(٣) .

وتدخل الفلسفة الالهية في بحث المجاز العقلى ، ويمضي القزويني وشراح تلخيصه في الكلام على الفاعل الحقيقى بالنسبة للمؤمن والدهرى ، فيجعل للمؤمن كلاما وللكافر كلاما وللمعتزلى كلاما وللجاهل كلاما ، ويتضح هذا الاتجاه في قوله حينما يقسم الحقيقة الى أربعة أضرب هي : ما يطابق الواقع واعتقاده كقول المؤمن « أنبت الله البقل » و « شفى الله المريض » ، وما يطابق الواقع دون اعتقاده كقول المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها

(١) تنظر حاشية الدسوقي ج ١ ص ١١٨ .
(٢) الايضاح ص ١٣ .
(٣) حاشية الدسوقي ج ١ ص ١٦٤ .

منه « خالق الافعال كلها هو الله تعالى » ، وما يطابق اعتقاده دون الواقع كقول الجاهل « شفى الطبيب المريض » معتقدا شفاء المريض من الطبيب ، وما لا يطابق شيئاً منهما كالاقوال الكاذبة التي يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب[1] . يقول الدكتور بدوي طبانة معلقا على هذا الكلام : « وكأنه نفذ الى العقول ووصل الى مكامن القلوب والشعور . وكل هذه العبارات كما ترى يقولها المؤمن كما يقولها غير المؤمن مدفوعا في قولها بهذه العلائق الظاهرة وتلك الملابسات التي لا تنفصم بين الاثر والمؤثر[2] » .

ويشتد النقاش حينما يعرضون لمثل قولهم « أنبت الربيع البقل » فان انبات البقل في الواقع لله تعالى وفي اعتقاد الجاهل للربيع ، ويعرضون لآراء المعتزلة مما يطول نقله[3] . ولم يدفعهم الى هذا الا النظرة الدينية ، والا ايمانهم ان لكل معلول علة وان لكل مسبب سببا ؟ ولذلك يصرح القزويني قائلا : « ان الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب ان يكون له فاعل في التقدير اذا اسند اليه صار الاسناد حقيقة[4] » . وقد يكون ظاهرا كما في قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » أي : فما ربحوا في تجارتهم ، وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل كما في « سرتني رؤيتك » أي: سرني الله وقت رؤيتك ، وقول الشاعر :

وصيرني هواك وبي ... لحيني يضرب المثل

أي : وصيرني الله لهواك وحالي هذه ، أي أهلكني الله ابتلاء بسبب هواك ، وكما في قول الآخر :

يزيدك وجهه حسناً ... اذا ما زدته نظرا

أي : يزيدك الله حسنا في وجهه ، وهو في ذلك يتابع فخر الدين الرازي والسكاكي ، وكان عبدالقاهر قد وجه المجاز العقلي هذه الوجهة

---

(١) الايضاح ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) البيان العربي ص ٢٨٩ .

(٣) ينظر المطول ص ٥٤ وما بعدها ، والاطول ج ١ ص ٦٩ ، وشروح التلخيص ج ١ ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٤) الايضاح ص ٢٩ .

الدينية وان لم يوجب ان يكون للفعل فاعل في التقدير اذا نقل الفعل اليه عاد الى الحقيقة[1] .

وتكلم القزويني في بحث الفصل والوصل على الجامع وانواعه ، وهو عقلي ووهمي وخيالي وشرع في شرحها فقال : « اما العقلي فهو ان يكون بينهما اتحاد في التصور أو تماثل فان العقل بتجريده المثلين عن التشخص في الخارج يرفع التعدد . أو تضايف كما بين العلة والمعلول والسبب والمسبب والسفل والعلو والاقل والاكثر ، فان العقل يأبى ان لا يجتمعا في الذهن . وأما الوهمي فهو ان يكون بين تصوريهما شبه تماثل كلون بياض ولون صفرة فان الوهم يبرزهما في معرض المثلين ولذلك حسن الجمع بين الثلاثة التي في قوله :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وابو اسحق والقمر

أو تضاد كالسواد والبياض والهمس والجهارة والطيب والنتن والحلاوة والحموضة والملاسة والخشونة وكالتحرك والسكون والقيام والقعود والذهاب والمجيء والاقرار والانكار والايمان والكفر وكالمتصفات بذلك كالاسود والابيض والمؤمن والكافر . أو شبه تضاد كالسماء والارض والسهل والجبل والاول والثاني ، فان الوهم ينزل المتضادين والشبيهين بهما منزلة المتضايفين فيجمع بينهما في الذهن ولذلك تجد الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد . والخيالي ان يكون بين تصوريهما تقارن في الخيال سابق، واسبابه مختلفة ولذلك اختلفت الصور الثابتة في الخيالات ترتبا ووضوحا فكم صور تتعانق في خيال وهي في آخر لا تتراءى وكم صورة لا تكاد تلوح في خيال وهي في غيره نار على علم[2] » . وينتهي القزويني الى ان لصاحب علم المعاني فضل احتياج الى التنبيه على أنواع الجامع ولا سيما الخيالي . ويمضي الشراح في هذا الاحتياج مستخدمين وسائلهم واساليبهم المعهودة فيقولون ان التماثل في اصطلاح الكلامي الاتحاد في النوع والتجانس

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٢) الايضاح ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

الاتحاد في الجنس ، والتشابه الاتحاد في العرض[1] ، وهذا كلام بعيد كل البعد عن مفهوم البلاغة وخارج عن كل فن أدبي • ويذهب ابن يعقوب المغربى الى مدى أبعد فيقدم لهذا البحث الفلسفي بمقدمة فلسفية في القوى الباطنية المدركة وهي عند الحكماء أربعة : القوة العاقلة ، والقوة الوهمية ، وقوة الحس المشترك ، والقوة المفكرة ، ويمضي فى شرح القوى الاربع قائلا : « فاما القوة العاقلة فزعموا انها قائمة بالنفس او بالقلب تدرك الكليات والجزئيات المجردة عن عوارض المادة المعروضة للصور والابعاد كالطول والعرض والعمق لانها مجردة ولا يقوم بها الا المجرد وزعموا ان لها خزانة هى العقل الفياض المدبر لفلك القمر • وأما الوهمية فهى القوة المدركة لمعاني الجزئيات الموجودة في المحسوسات بشرط ان تكون تلك المدركات الجزئيات لا تتأدى الى مدركها من طرق الحواس وذلك كادراك الصداقة والعداوة وكادراك الشاة معنى هو الايذاء في الذئب مثلا ولذلك يقال ان البهائم لها وهم تدرك به كما ان لها حسا وتحكم تلك القوة باحكام كاذبة • ثم تلك القوة أعني الوهمية قائمة باول التجويف الاخر من الدماغ وذلك ان للدماغ تجاويف أى بطونا واحدها في مقدم الدماغ وآخر في مؤخره وآخر فى وسطه فزعموا ان الوهم باول التجويف الآخر وله خزانة تسمى الذاكرة والحافظة قائمة بمؤخر تجويف الوهم • واما الحس المشترك وهو الذى تتأدى اليه الصور المحسوسة الجزئية من الحواس الظاهرة فهو قوة قائمة باول التجويف الاول من الدماغ وتحكم بين تلك الصورة المتأدية اليها كالحكم بان هذا الاصفر هو نفس هذا الحلو مثلا • ويعنون بالصورة ما يمكن ادراكه ببعض الحواس الظاهرة ولو كان مسموعا، ويعنون بالمعانى الجزئية المدركة للوهم ما لا يمكن ادراكه بها وخزانته الخيال وهو قوة قائمة باخر ذلك التجويف اعني تجويف الحس المشترك فتبقى فيه تلك الصور بعد غيبتها عن الحس المشترك • واما المفكرة فهى قوة

---

(١) المطول ص ٢٦٨ ، وشروح التلخيص ج ٣ ص ٩٢ وما بعدها ، والاطول ج ٢ ص ٢٠ •

تتصرف في الصور الخيالية وفي المعاني الجزئية الوهمية وهي دائما لا تسكن يقظة ولا مناما • واذا حكمت بين تلك الصور وتلك المعاني فان كان حكمها بواسطة العقل كان صوابا وان كان بواسطة الوهم والخيال كان غالبا كاذبا كالحكم بان رأس الحمار ثابت على جثة الانسان والعكس ولا ينتظم تصرفها بل تتصرف بها النفس كيف اتفق وهي انما تسمى مفكرة في الحقيقة ان تصرفت بواسطة العقل وحده أو مع الوهم وان تصرفت بواسطة الوهم وحده أو بالخيال وحده أو بهما خصت باسم المتخيلة او المتوهمة ولم يذكروا لها خزانة بل خزائنها خزائن القوى الاخر • وقد تقرر بهذا ان هناك في الباطن سبعة أمور : القوة العاقلة ، وخزانتها ، والوهمية ، وخزانتها ،والحس المشترك ، وخزانته ، والمفكرة • وبها اعني هذه السبعة ينتظم أمر الادراك وقد صرح بعض الحذاق من المحققين بان النفس هي المدركة بواسطة هذه القوى وان نسبة الادراك اليها كنسبة القطع الى السكين في يد صاحبه ، وهذا كله عند الحكماء[1] » • لقد نقلنا هذا كله لنظهر خروجهم عن البلاغة ، والا فما علاقة هذا الكلام بها وكيف يستفيد منه الاديب أو المتذوق في نقد الادب واظهار جماله •

وادخلوا في علم البيان الدلالات وتكلموا عليها كلاما طويلا وقسموها الى ثلاثة أنواع : دلالة المطابقة وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له وقد سميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى أي توافقهما أو لتطابق الفهم والوضع بمعنى ان ما فهم هو ما وضع له اللفظ ، ودلالة التضمن وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه وقد سميت بذلك لان الجزء المفهوم من اللفظ هو في ضمن المعنى الكلي فيفهم عند فهمه ، ودلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له ، وقد سميت بذلك لان المدلول فيها لازم للمعنى الموضوع له • وتسمى دلالة المطابقة عند علماء البيان دلالة وضعية لان السبب في حصولها عند سماع اللفظ أو تذكره هو معرفة الوضع دون حاجة الى شيء آخر • أما دلالتا التضمن

(١) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٨١ •

والالتزام فتسميان دلالتين عقليتين ؛ لان حصولهما بانتقال العقل من الكل الى الجزء في الأولى ، ومن الملزوم الى اللازم في الثانية بمعنى ان الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى غير أن العقل اقتضى ان الشيء لا يوجد بلا جزئه ولازمه[1] .

وقد بنى البلاغيون المتأخرون تقسيم البيان على هذه الدلالات فاخرجوا التشبيه ؛ لان دلالته وضعية والدلالة الوضعية لا يمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، يقول القزويني : « ثم ايراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالات الوضعية ؛ لان السامع ان كان عالما بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض وإلاّ لَمْ يكن كل واحد منها دالاً ، وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز ان يكون للشيء لوازم بعضها أصح لزوما من بعض[2] » . فانحصر علم البيان في المجاز والكناية ، ولما كانت الاستعارة تبنى على التشبيه لذلك جعله قسما ثالثا للبيان ، يقول : « ثم المجاز منه الاستعارة وهي ما تبتنى على التشبيه فتعين التعرض له ، فانحصر المقصود في التشبيه والمجاز والكناية ، وقدم التشبيه على المجاز لما ذكرنا من ابتناء الاستعارة التي هي مجاز على التشبيه ، وقدم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل[3] » . وأسرف شراح التلخيص في بحث الدلالات مع ان القزويني أشار اليها اشارة عابرة ، وكانت هذه البحوث ويلا وثبورا على البلاغة العربية ؛ لانها اخرجتها عن هدفها الفني .

وكان بحث التشبيه مجالا لتسابق القزويني والشراح في ادخال البحوث الفلسفية وقد تكلموا في الالوان والطعوم والروائح والحركات والمحسوسات والكيفيات النفسية والبحث في اللذة والالم والوهم والخيال والمفكرة

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٥٦ ، والطراز ج ١ ص ٣٤ — ٣٩ ، والايضاح ص ٢١٢ ، والمطول ص ٣٠٠ ، وشروح التلخيص ج ٣ ص ٢٥٦ وما بعدها ، والاطول ج ٢ ص ٥٠ وما بعدها ، وفن التشبيه ج ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٢) الايضاح ص ٢١٢ .

(٣) الايضاح ص ٢١٣ .

والوجدان والماهية والكلام على حرارة الحروف وبرودتها ورطوبتها ويبوستها • وأسرف المغربي في الكلام على اللذة والالم والبصر واقوال حكماء التشريح والكلام على الاشكال والحركة واختلاف المتكلمين والحكماء فيها وتفسير السمع والذوق والطعوم والصلابة واللين والخفة والثقل ، وأسرف في الحديث عن الكيفيات النفسية من الذكاء والعلم والغضب والحلم والغرائز[1] ، وهو في هذا كله يقارن بين أقوال المتكلمين وآراء الحكماء •

ونجد التفتازاني عندما يتحدث عن وجه الشبه يقول : « مما يدرك بالبصر وهو قوة مرتبة في العصبتين المجوفتين تتلاقيان وتفترقان الى العينين ••• والحركات وهي الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدريج وفي جعل المقادير والحركات من الكيفيات •••• أو بالسمع والسمع قوة رتبت في العصب المفروش على سطح باطن الصماخين يدرك بها الاصوات من الاصوات القوية والضعيفة والتي بين بين • والصوت يحصل من التموج المعلول للقرع الذى هو احساس عنيف ، والقلع الذى هو تفريق عنيف بشرط مقاومة المقروع للقارع والمقلوع للقالع ويختلف الصوت قوة وضعفا بحسب قوة المقاومة وضعفها • أو بالذوق وهو قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان من الطعوم كالحراقة والمرارة والملوحة والحموضة وغير ذلك ، أو بالشم وهي قوة رتبت في زائدتي مقدم الدماغ المشبهتين بحلمتي الثدى من الروائح ، أو باللمس وهى قوة سارية في البدن يدرك بها الملموسات[2] » • ونجد الخلاف على أشده بين المذاهب في المسائل المقحمة ، فهذا المغربي يقول في بحث وصف المسند اليه متكلما على الجسم الطويل : « ثم ان تفسيره بما ذكر انما هو على المذهب الاعتزالي ، واما عند الحكماء فالجسم هو المركب من الهيولى أى الجواهر المفردة ومن الصورة ، وعند اهل السنة هو ما تركب من جوهرين فاكثر ، والفرق بين المذهب السني ومذهب الحكماء ان الصورة عند الحكماء لها دخل في التركيب وهى جزء

---

(١) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٣٢٠ وما بعدها •

(٢) المختصر ج ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها •

الجسم وعند أهل السنه ان التركيب للجواهر والصورة عرض اعتباري أو حقيقي ولا مدخل لها في جزئية الجسم[١] » .

وكان القدماء أنفسهم يشعرون بثقل هذه المادة على البلاغة وغرابتها ولكنهم جاروا المتقدمين وانقسموا فيها ، يقول المغربي بعد ان تحدث عن اللذة والالم والاشكال والسمع والذوق : « وقد اطنبت قليلا فيما يتعلق بهذه الكيفيات على حسب ما فسرها الشارح مما هو من تدقيقات الحكماء بعد تفسير بعضها بما هو أقرب الى الفهم قصد الايضاح وزيادة في الفائدة وان كان تفسيره كما قيل لا يناسب هذا الفن ولا يسهل على المتعلم بل يزيده حيرة . ولكن حيث ارتكب ذلك وجب مجاراته مع زيادة ما يوضح الغرض من بيان اصطلاحهم ازالة للحيرة عن المتعلم[٢] » . ونجد عصام الدين يقول بعد ان تكلم على الحواس والكيفيات والحركات : « واعلم انه لم يف المصنف بما وعد في ديباجة الكتاب من حذف الحشو والتطويل والتعقيد ونسي عنه في هذا المقام ؛ لان هذه التقسيمات ما لا نفع له فى هذا الفن بل يوجب تحير الافهام وايقاع المبتدئين فى الظلام حتى ان الشارح قال كانه ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين فهو من التطويلات المشكلة على المبتدىء فيجب حذفه لمن التزم تنقيح الكلام عن التطويل والتعقيد وكأنه منع المصنف حذفه لاتقائه من الاتهام بانه لم يتعرف على اصطلاحات المتكلمين فحذفه لعدم فهمه مقاصد المفتاح في هذا المقام لكونه عاريا عن معرفة مصطلحات الكلام[٣] » ، وبذلك نرى ان القدماء انفسهم احسوا بما في هذه البحوث من ثقل على الدراسات البلاغية ولكنهم يذكرونها خوفا من ان يتهموا بعدم الاطلاع عليها . وقد دفعهم هذا الاحساس والشعور الى البحث فيها واقحامها في البلاغة واتخاذها دليلا على ثقافتهم الواسعة واطلاعهم على اساليب الفلاسفة والمتكلمين .

وكان لمصطلحات المنطق أثر في كتابي القزويني ، ففيهما التأسيس

---

(١) مواهب الفتاح ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٣) الاطول ج ٢ ص ٧٧ .

والموجبة والمهملة والمعدولة والسالبة المهملة والسالبة الكلية والسالبةالجزئية والمسورة والتصور والتصديق وغيرها[1] ، ونجد في شروح التلخيص المصدوق والماصدق ومصطلحات الحكماء والاصوليين •

ولم يقف الامر عند هذا بل استفاد القزويني من أساليب الفلاسفة والمتكلمين في البحث والشرح والتعليل ، يقول في تعريف فصاحة المتكلم : « واما فصاحة المتكلم فهى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح •••• وقيل « ملكة » ولم يقل « صفة » ليشعر بان الفصاحة من الهيئات الراسخة حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحا الا اذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه • وقيل « يقتدر بها » ولم يقل « يعبر بها » ليشمل حالتي النطق وعدمه ، وقيل « بلفظ فصيح » ليعم المفرد والمركب[2] » • وقال بعد ان عرف علم المعاني : « وقيل « يعرف » دون « يعلم » رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات كما قال صاحب القانون في تعريف الطب : الطب علم يعرف به أحوال بدن الانسان ، وكما قال الشيخ أبو عمر رحمه الله : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم[3] » •

وهذا الاسلوب وان كان معروفا عند المتقدمين الا انهم لم يسرفوا فيه هذا الاسراف ولم يستعملوه في ميدان البحث البلاغي ، وقد غلا شراح تلخيص المفتاح في هذا الاتجاه فقال عصام الدين شارحا معنى « علم » في تعريف البيان : « وهو علم أى مسائل معلومة عن الادلة أو تصديقات بها حاصلة عن الادلة ، أو ملكة هذه التصديقات اعني كيفية راسخة يتمكن بها من التصديق بمسألة مسألة تفصيلا من غير حاجة الى تجشم كسب جديد • وانما قيدنا معاني العلم بالحصول على الدليل وان أطلقها الناظرون في هذا

(١) الايضاح ص ٦٤ ـ ٦٥ ، والتلخيص ص ٨٤ •
(٢) الايضاح ص ٩ •
(٣) الايضاح ص ١٢ •

المقام لما حققت من ان من جمع مسائل العلم بالتقليد لا يسمى عالما وتصديقاتها لها لا يسمى علما واستعمال لفظ العلم في التعريف مخل[1] » ، ويمضي في هذا الكلام مسوّدا صفحات عديدة .

ويستعمل القزويني في اظهار الحسن البلاغي الاساليب الفقهية والفلسفية في التعليل ، فيقول بعد ان انتهى من بحث موضوعات البيان : « اطبق البلغاء على ان المجاز أبلغ من الحقيقة ، وان الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ، وان التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة ، وان الكناية أبلغ من الافصاح بالذكر[2] » ، ولكن لماذا ؟ لم يذكر القزويني وغيره من المتأخرين سبب ذلك ووجهة النظر البلاغي وانما « السبب في ذلك ان الانتقال في الجميع من الملزوم الى اللازم فيكون اثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ من اثباته دعواه بلا بينة[3] » .

ولا يخرج تعليله في تأكيد المدح بما يشبه الذم عن هذا التعليل ، يقول « فالتأكيد فيه من وجهين :

احدهما : انه كدعوى الشيء ببينة .

والثاني : ان الاصل في الاستثناء ان يكون متصلاً ، فاذا نطق المتكلم بـ « الا » او نحوها توهم السامع قبل ان ينطق بما بعدها ان ما يأتي بعدها مخرج مما قبلها فيكون شيء من صفة الذم ثابتا ، وهذا ذم فاذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحا على مدح وان كان فيه نوع من الخلابة[4] » . لقد أحس القزويني ان في هذا نوعا من الخلابة ولكن ما هي ؟ لم يستطع ان يشرح لنا هذه الخلابة ويبين أهمية استعمال هذا الاسلوب وقيمته في التعبير الا ما كان من دعوى الشيء ببينة ، فالتعليلان

---

(١) الاطول ج ٢ ص ٥٠ .
(٢) الايضاح ص ٣٢٨ .
(٣) الايضاح ص ٣٢٩ .
(٤) الايضاح ص ٣٧٣ .

الفقهي والنحوي لا يجديان في اظهار جمال هذا الاسلوب ، وقد صرح المغربي ان في هذا التعليل تمحلا وان قال عن الثاني انه ابلغ وانه توجيه يتملح ويثلج به الصدر في افادة التأكيد حقيقة ، والاول انما افاد التأكيد بأمر تخييلي[1] • ويرى الاستاذ الخولي ان السر النفسي لجمال هـذا الاسلوب ما فيه من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتثير حوله تنبيها ، وسواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أم يتحول معها منقطعا فان المباغتة هي الاصل لا ملاحظة الاستثناء وحالته[2] • ونحن لا نستطيع ان نأخذ هذه التعليلات دليلا على روعة الاساليب الادبية ؛ لانها لا تفيدنا كثيرا ولا تفتح الطريق أمامنا لتلمس مواطن الجمال وتحسس مـا تثيره في النفوس • وننتهى من هذا كله الى ان النزعة الفلسفية والجدلية تسيطر على بلاغة القزويني ، وهذا واضح في المنهج والتبويب وبيان المعاني البلاغية واستخدام المصطلحات والاساليب الكلامية والفلسفية والاصولية ، ومن هنا نرى ان لا فائدة في العكوف على بلاغة القزويني وانه لمن المفيد ان نجرد بلاغتنا الجديدة ممـا علق بها من غريب • وليس هـذا وحده ما ينبغي تخليته من البلاغة فهناك موضوعات اقحمت فيها اقحاما كالدراسات النحوية التي تظهر باجلى صورها في فصول علم المعاني الذى أحاله السكاكى والقزوينى ومن جاء بعدهما الى ميدان للجدل في تقدير الفاعل او المفعول ، أو البحث في استعمال أدوات الشرط ، واحوال التعريف وتقسيم القصر باعتبار المقصور الى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف ، وباعتبار حال المخاطب به الى قصر افراد أو قصر قلب وقصر تعيين ، أو البحث في ادوات الاستفهام والتمنى والنداء والامر والنهي والبحث في واو الحال وغيرها مما ذكره السبكي في شرحه الذى كان ميدانا لعرض الآراء النحوية ووجهات النظر المختلفة • ونرى ان نعيد هـذه المباحث الى النحو ونضمها الى فصوله لتعود اليه الحياة بعد أن سلبوه كل شيء وجعلوه يتعلق

---

(١) مواهب الفتاح ج ٤ ص ٣٨٩ •

(٢) ينظر مناهج تجديد ص ١٩٧ •

باواخر الكلمات من رفع ونصب أو بناء واعراب وقد أشار القدماء الى ان كثيرا من هذه الموضوعات ليست من علم المعاني ، يقول عصام الدين عن الامر : « ولا يخفى عليك ان مباحث الامر كالاستفهام ليس من فن المعاني وليس منه الا نكات العدول من الحقيقة الى التجوز بالامر[1] » .

واننا اذ ندعو الى اخراج هذه الموضوعات من البلاغة نهدف الى أمرين :

الاول : تخليص البلاغة من كل غريب لا علاقة له بالفن الادبى ، وانما اقحم عليها اقحاما أفقدها قيمتها والغرض الذى من أجله درسها القدماء .

والثاني : تخليصها من هذا الاضطراب المنهجى والانتقال من اسلوب الى اسلوب ، فهم يتخذون تارة أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون ، ويتخذون أسلوب الفقهاء حينما يعللون ويظهرون روعة الاساليب تارة أخرى ، ويتخذون اسلوب النحاة حينما يعرضون لموضوعات النحو ويفصلون القول فيها ، وما أحوج البلاغة الى تجريدها من هذا كله لتبقى خالصة للفن وليبقى اسلوبها متسقا ليس فيه هذا الانتقال الذى تحتمه طبيعة كل نوع من هذه الموضوعات المختلفة في الهدف والاسلوب .

ونحن حينما ندعو الى اخراج الغريب من البلاغة كالنحو والمباحث اللغوية لا نعني بذلك انها عديمة الفائدة بل بالعكس نرى ان لها قيمة في فهم الادب وتذوقه ومعرفة ما فيه ، وهى ضرورية جدا ، ومن هنا نجد الاقدمين وعلى رأسهم البلاغي الناقد ابن الاثير يعتبرها من مكملات ثقافة الاديب والباحث في البلاغة ، وقد ذكر في أول المثل السائر والجامع الكبير ان الانسان ليحتاج اليها وانها المفتاح الذى يفتح أبواب البلاغة ولكن على شرط ان لا تمتزج بحوثها بفصول البلاغة بل تدرس على اساس انها علوم مستقلة تفيد الاديب في تنمية ثقافته اللغوية والنحوية وتقوى مداركه وتعينه في نقد الكلام وتمييز حسنه من رديئه .

---

(١) الاطول ج ١ ص ٢٤٨ .

٤

هذا ما ينبغي اخراجه من بلاغة القزويني ، اما ما يمكن الاستفادة منه في البلاغة الحديثة فهو غير ما ذكرنا ، وانا لواجدون عند القزويني كثيرا من البحوث الصالحة للبقاء ، من ذلك مصطلحات البلاغة التي نشأت في أول عهدها نشأة بسيطة ثم أخذت تتطور على مرور الايام حتى استقرت وتحددت معانيها ومفاهيمها على يد السكاكي والقزويني . واننا اذ ندعو الى الاخذ بمصطلحات القزويني البلاغية انما نريد التخلص من الفوضى التي دخلتها والاضطراب الذي أصابها ، ولو رجعنا الى أي مصطلح منها وتابعناه منذ أول نشأته حتى القزويني لوجدنا الاختلاف واضحا والتحديد غير متفق عليه ، وقد بدا هذا جليا في موضوعات البـديع التي تسابق البلاغيون في تفريعها وأوصلوها الى اكثر من مائة ، وانه لمن اليسير ان يضم كثير منها الى أنواع معينة ولـكن غرامهم بالبديع وتفاخرهم بالسبق دعاهم الى هذا مع ان السكاكي الذي عاش في عصر متأخر لم يذكر منه الا أنواعا قليلة ، ولكن أصحاب البديعيات كالحلي والموصلي والحموي أوصلوها الى ما وصلت الينا . وقد بدأ الولوع بهذا مبكرا حتى ان ابن الأثير يقول : « اعلم انه قد اختلف ارباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان حتى ان أحدهـم يضع لنوع واحد اسمين اعتقادا منه ان ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كما وقع له بل هما نوع واحد ، فممن فعل ذلك الغانمي فانه ذكر في كتابه بابا من أبواب علم البيان وسماه التبليغ ، وهو ان يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكر صنع ، ثم يأتي بها لحاجة الشعر اليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في الجودة .... ثم انه ذكر بعد هذا الباب بابا آخر وسماه الاشباع فقال : هو ان يأتي الشاعر بالبيت معلقا بالقافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الا حذاق الشعراء وذلك ان الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكائه وفطنته الى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لأعاريضه ووزنه

فجعلها نعتا للمذكور .... هذا كلام الغانمي بعينه والبابان المذكوران سواء لا فرق بينهما بحال من الاحوال[1] » . وقد جمع العسكري هذين النوعين في فن واحد اطلق عليه اسم الايغال وذكر امثلتهما وبذلك قلل المصطلحات[2]، وأيده ابن الاثير فقال : « وهذا أقرب أمرا من الغانمي ، لانه ذكره في باب واحد وسماه باسم واحد ولم يذكره في باب آخر كما فعل الغانمي ـ رحمه الله ـ وليس الاخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الاسماء وانما المناقشة له على ان ينتصب لايراد علم البيان وتفصيل أبوابه ويكون أحد الابواب التي ذكرها داخلا في الآخر فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه وهو أشهر من فلق الصبح[3] » .

وادّعى ابن أبي الاصبع المصري انه اخترع ثلاثين نوعا بديعيا ، والمتتبع لهذه الانواع يرى انها لم تسلم له كلها وانما كان بعضها مسبوقا اليها كالتخيير والتدبيج والاستقصاء والبسط والتشكيك والتهكم والتنذير والفرائد والالغاز والتعمية والنزاهة والمراجعة والسلب والايجاب والابهام والمقارنة والمناقضة وحسن الخاتمة . ولم يسلم له الا التخريج والهجاء في معرض المدح والعنوان والايضاح والحيدة والانتقال والشماتة والاسجال بعد المغالطة والتصرف والتسليم والافتنان والقول بالموجب وحصر الجزئي والحاقه بالكلي والابداع والانفصال[4] . ولم يدفعه الى هذا الا تفريعاته واطلاق المصطلحات الخاصة على فنون قد تكون نوعا واحدا ، فالبسط عنده ليس الا الاطناب الذي عرفه البلاغيون منذ أول عهدهم بالتأليف وهكذا الامر في بقية الفنون .

ولكي نظهر اختلاف البلاغيين في المصطلحات واطلاقهم الاسماء المختلفة على فن بلاغي واحد نذكر أمثلة ، منها تسميتهم التجنيس بالجناس

(١) الجامع الكبير ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .
(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٨ وما بعدها .
(٣) الجامع الكبير ص ٢٤١ ، والمثل السائر ج ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .
(٤) تنظر هذه الفنون في بديع القرآن وينظر الفصل الرابع من كتاب ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة .

والمجانس ، وان بعض البغداديين يسمي تساوي اللفظتين في الصفة مع اختلاف المعنى المتماثل[1] ، وتسميتهم التورية بالايهام والتوجيه والتخيير[2] ، ويرى ابن حجة ان التورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ولانها مصدر وريت الخبر تورية اذا سترته واظهرت غيره[3] ، وتسمية التشبيه المقلوب بغلبة الفروع على الاصول أو الطرد والعكس[4] ، وتسمية المنصف بالاستدراك لاستدراجه الخصم الى الاذعان والتسليم[5] ، والتوجيه بمحتمل الضدين[6] ، وتسمية الارصاد بالتسهيم والتوشيح • وقد نقد ابن الاثير أبا هلال فقال : « ورأيت أبا هلال العسكري قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالارصاد أولى وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به ، وأما التوشيح فانه نوع آخر من علم البيان »[7] ، وتسمية لزوم ما لا يلزم بالالزام والتضمين والتشديد والاعنات والتضييق[8] والتشريع بالتوشيح وذي القافيتين[9] وتسمية التكميل بالاحتراس ، وعللوا هذه التسمية فقالوا : « ويسمى هذا النوع من الاطناب الاحتراس أيضا أي زيادة على تسميته بالتكميل • أما تسميته بالتكميل فلتكميله المعنى بدفع خلاف المقصود عنه • واما تسميته بالاحتراس فهو من حرس الشيء حفظه وهذا فيه حفظ المعنى • ووقايته من توهم خلاف المقصود ؛ لان ما أتى به فيه يحترز به عن خلاف

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ •

(٢) التلخيص ص ٣٦٠ ، والايضاح ص ٣٥٣ ، والمطول ص ٤٢٥ ، وشروح التلخيص ج ٤ ص ٣٢٢ •

(٣) خزانة الادب ص ٢٣٩ •

(٤) المثل السائر ج ١ ص ٤٢١ ، والجامع الكبير ص ٩٧ ، والفوائد ص ٥٧ ، ٥٩ ، والخصائص ج ١ ص ٣٠٠ •

(٥) المطول ص ١٦٥ •

(٦) المطول ص ٤٤٣ ، وشروح التلخيص ج ٤ ص ٤٠٠ •

(٧) المثل السائر ج ٢ ص ٣٥٠ ، وينظر التلخيص ص ٣٥٦ ، والايضاح ص ٣٤٧ ، والمطول ص ٤٢٢ ، وشروح التلخيص ج ٤ ص ٣٠٥ •

(٨) شروح التلخيص ج ٤ ص ٤٦٣ ، والمطول ص ٤٥٨ ، والفوائد ص ٢٣٤ •

(٩) المطول ص ٤٥٨ ، والمختصر ج ٤ ص ٤٦١ •

المقصود »[1] . ورد العجز على الصدر بالتصدير وكان العاملي قد ذكر بابا باسم رد الاعجاز على الصدور خارجاً عن باب التجنيس وهو ضرب منه وقسم من جمله[2] . وتسمية المطابقة بالطباق والتضاد والتطبيق والتكافؤ[3] ، والتشريع بالتوأم والتوشيح[4] ، وتجاهل العارف بسوق المعلوم مساق غيره وقد سماه السكاكي بالاسم الاخير يقول : « ولا أحب تسميته بالتجاهل »[5] ، وتسمية مراعاة النظير بالتناسب والتوفيق والائتلاف والتلفيق ، ويرى السبكي ان من الاحسن تسميته التأليف لموافقة التوفيق[6] ، والمذهب الكلامي بالاحتجاج النظري ، وقد أكثر أبو حيان النحوي الاندلسي من استعمال المصطلح الثاني في تفسيره للقرآن الكريم ولكن البلاغيين اطلقوا عليه الاسم الاول[7] .

هذه أمثلة لاختلافهم في المصطلحات وهي تدلنا دلالة واضحة على ان فنون البلاغة ومصطلحاتها بقيت تتطور على مدى العصور ومن هنا جاء هذا الاختلاف ، ولكنها بقيت ثابتة بعد أن وضع القزويني كتابيه التلخيص والايضاح ، ولو اردنا ان نستقصي تطور المصطلحات لطال بنا الكلام ولعل في العودة الى المثل السائر وبديع القرآن وخزانة الحموي ما يغني عن الكلام ؛ لان هذه الكتب قد جمعت الآراء المختلفة في كل موضوع وذكرت مصطلحات الفن الواحد .

---

(١) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) الجامع الكبير ص ٢٥٨ ، والمثل السائر ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٣) التلخيص ص ٣٤٨ ، والايضاح ص ٣٣٤ ، والمطول ص ٤١٧ ، وشروح التلخيص ج ٤ ص ٢٨٦ ، والفوائد ص ١٤٥ ، والمثل السائر ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) التلخيص ص ٤٠٥ ، والبلاغة العلية ص ١٦٢ .

(٥) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ ، والايضاح ص ٣٧٨ والتلخيص ص ٣٨٥ .

(٦) شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٠١ ، والتلخيص ص ٣٥٤ ، والايضاح ص ٣٤٣ ، والمطول ص ٤٢٠ .

(٧) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٨٩ ، ٣٠٥ ، و ج ٤ ص ٢٩٢ و ج ٥ ص ٣٥٠ ، والتلخيص ص ٣٧٤ ، والايضاح ص ٣٦٦ ، والفوائد ص ١٣٦ ، وشروح التلخيص ج ٤ ص ٣٦٩ .

ونحن في بلاغتنا الجديدة لا يمكن ان نبقى مضطربين في هذه المصطلحات ، وانما ينبغي ان ننسقها ونوحدها ونضم بعضها الى بعض ونستعمل منها ما هو أكثر دلالة على الفن البلاغي الذي نبحث فيه • ونرى ان نستفيد مما ذكره القزويني لانه جمع زبدتها في كتابيه ، وقد كان موفقا الى حد كبير في بحث البديع فادخل بعض فنونه في بعض وبذلك قلل المصطلحات وقلل أنواع البديع الذي أسرف المتأخرون في تنويعها • ولكن لن نقف عند القزويني في هذه الناحية وانما ينبغي ان نستفيد من غيره فنأخذ ما هو أجدى من مصطلحاته وأكثرها دلالة وأقرب الى الفهم والذوق السليم •

ومن الموضوعات التي ينبغي ان نستفيد منها مقدمته في الفصاحة وهي ليست مقدمة لدراسة البلاغة كما يزعم وانما هي من صميم الدراسات البلاغية وان كان عبدالقاهر لم ير لها مزية لانه شغل بالنظم الذي أراد ان يبرهن به على ان القرآن معجز لا بالالفاظ التي يتساوى فيها القرآن وغيره من كلام العرب ولانها لم تكتسب شيئا جديدا لم يكن لها قبل ان توضع في آيات الكتاب المبين • وقد اهتم بها القدماء كابن سنان وابن الاثير وغيرهما ورأوا ان الاديب يحتاج في تأليفه الى ثلاثة أشياء : اختيار الالفاظ المفردة وحكم ذلك حكم اللآلي المبددة فانها تتخير وتنتقى قبل النظم ، ونظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن موضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه باختها المشاكلة لها • والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم فتارة يجعل اكليلا على الرأس وتارة يجعل قلادة في العنق وتارة يجعل شنفاً في الاذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه • وينتهي ابن الاثير الى ان هذه الامور الثلاثة لابد للخطيب والشاعر من العناية بها وهي الاصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر ، فالاول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة • وذهب الى ان

للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتا منكرا كصوت حمار وان لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم[1] .

واهتم المعاصرون بالبحث في اللفظ الموحي واللفظ القوي واللفظ المؤنس والعذب في تآلفه مع الجملة وكيف يعبر عن الانفعال أو الفكرة وكيف يحدث صورة وان اختيار الكلمة الواجبة المؤثرة هي أول خطوة للبناء الفني ، وذهب بعض النقاد المحدثين الى ان اللفظ « عنصر على جانب كبير من الاهمية وقد يقوم به القصيد دون حاجة الى صورة خيالية أو موسيقى جياشة ، فان الالفاظ وصوتها ودلالتها وجوّها وتآلفها كافية لابداع القصيد البديع »[2] .

ومنها بحث الايجاز والاطناب والمساواة فقد جمع فيه القزويني جودة التقسيم مع روعة العرض والتحليل ، ولم يضطرب كما اضطرب المتأخرون فجعلوا بعض أقسامه من البديع كالتكميل والتتميم والايغال ، ويمكن ان نضم الى هذا البحث ما كتبه رجال المدرسة الادبية كابن رشيق وابن الأثير وبذلك تكون لنا مقاييس جيدة في نقد الكلام وتمييز الاساليب المختلفة ، ونرى ان هذا الفصل يكون بعد هذا كله من خيرة بحوث الاسلوب التي يهتم بها المعاصرون .

ولن نهمل من بلاغة القزويني بحوثه في التشبيه والاستعارة والكناية والبديع فهي من البحوث الجيدة التي تشهد له بسعة الاطلاع والتذوق ، ولكننا لن نأخذ تقسيماته الكثيرة وانما نقبل منها ما يفيدنا مع الاهتمام بتقليل الاقسام والابتعاد عن تعليلاته واعجابه بالتشبيهات الغريبة التي أكثر منها ابن المعتز وامثاله من الشعراء المترفين .

أما خاتمة كتابيه المتعلقة بالسرقات الشعرية وحسن الابتداء والتخلص

---

(١) ينظر المثل السائر ج ١ ص ١٤٢ ، ١٥٠ .
(٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ٥٧ ، وينظر النقد الادبي من خلال تجاربي ص ٨٠ وما بعدها .

والانتهاء فهي ضرورية في دراسة البلاغة ، ونخص بالذكر منها السرقات التي تلعب دورا كبيرا في الاحكام النقدية الحديثة • وهي ليست خاتمة للبلاغة أو تابعة لاحد فنونها وانما هي فن له أهميته في الدراسات البلاغية ، ولهذا اعتنى العرب بها قديما وافردوا لها كتبا وعنى بها المحدثون واولوها اهتماما عظيما لانها تنير السبيل للناقد في دراسة ابداع الاديب أو اسفافه ومعرفة جديده ومقدار أخذه عن الآخرين •

وللقزويني التفاتات طيبة منها ايمانه بالتجديد فهو ينقل عن الجاحظ قوله : « وكلام كثير جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة فمن آخر ذلك قولهم : لم يدع الاول للآخر شيئاً • فلو ان علماء كل عصر منذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا »[1] •

وله التفاتات نقدية منبثة في بحوثه البلاغية الصرفة وتتجلى مظاهر النقد عنده فيما ورد في تضاعيف الايضاح من الدراسات والآراء التي عقب بها على النصوص الشعرية فأظهر محاسنها أو عيوبها ، أو في معرض الدفاع عن أصحابها والرد على من نقدهم ، أو في سبيل تقرير مبدأ يزول به الوهم عن أذهان المعترضين • ويتجه نقده في بعض الاحيان الى أسلوب الموازنة بين شعر وشعر ، أو بين رأي وآخر ، وقد تجلى هذا في بحث السرقات بصورة خاصة لان بحثها يقوم على الموازنة •

وتطغى الشكلية في كثير من الاحيان على نقده وتحليله ومقارناته ، وأوضح مثال لذلك مقارنته بين قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » وبين قول العرب : « القتل أنفى للقتل » • يقول وهو يتكلم على ايجاز القصر : « ايجاز القصر وهو ما ليس بحذف كقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » فانه لا حذف فيه مع ان معناه كثير يزيد على لفظه لان المراد به ان الانسان اذا علم انه متى قَتَل قُتل كان ذلك داعياً له قويا الى ان لا يقدم على القتل فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض فكان في

---

(١) الايضاح ص ١٦ •

ارتفاع القتل حياة لهم »(1) • وهذا تعليق حسن منه فيه توضيح لمعنى الآية الكريمة ولكنه يغرق في الشكلية عند المقارنة فيضع النقاط الواحدة بعد الاخرى فيقول : « وفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى وهو قولهم « القتل أنفى للقتل » من وجوه :

أحدها : ان عدة حروف ما يناظره منه وهو « في القصاص حياة » عشرة في التلفظ وعدة حروفه أربعة عشر •

وثانيها : ما فيه من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه ادعى الى الاقتصاص •

وثالثها : ما يفيد تنكير « حياة » من التعظيم أو النوعية •

ورابعها : اطراده بخلاف قولهم فان القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره •

وخامسها : سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم •

وسادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم فان تقديره : القتل أنفى للقتل من تركه •

وسابعها : ان القصاص ضد الحياة ، فالجمع بينهما طباق •

وثامنها : جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بادخال « في » عليه • »(2)

ويمكن تطبيق ما تقدم على شروح التلخيص فنرفض منها ما رفضناه من بلاغة القزويني ونقبل ما أخذناه من التلخيص والايضاح ، وبذلك نبني بلاغتنا على أسس قديمة أبدع القدماء في ارسائها ، وعلى اسس حديثة تتطلبها حياتنا الجديدة ، ولن تكون البلاغة العربية صالحة في النقد الا اذا استفدنا من كتب البلاغة القديمة كلها ومن الدراسات الحديثة ، ومن أهمها الدراسات النفسية التي اهتم بها المحدثون اهتماما بالغا واستخدموها في النقد

---

(1) الايضاح ص ١٨٢ •

(2) الايضاح ص ١٨٢ ـ ١٨٣ •

ودراسة الفنون الادبية • وكان العرب منذ أول عهدهم بالتأليف قد لمحوا الصلة بين النفس والادب وفي كتبنا نماذج تدل على هذه الملمحة كما في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الذي ذكر ان للشعر دواعي تحث البطيء وتبعث من المتكلف ، منها الشراب والطرب والطمع والغضب والشوق ووصف الاماكن والاوقات التي يسرع فيها آتيّ الشعر • وفي كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني اشارات كثيرة من هذا ، ومما فطن له الجرجاني رجوع القاريء الى نفسه عند انشاء الشعر الرقيق وتفقد ما يتداخلها من الارتياح ويستخفها من الطرب ويتصور تلقاء ناظرها من سابق ذكرياتها اذا سمعت هذا الشعر[1] • واهتم عبدالقاهر بهذه الناحية حينما بحث صور الخيال من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية ولكن اهتمامه بالتقسيم والجدل المنطقي غطى عليها وطمس كثيرا من ملامحها •

ويمكن ان نتلمس الاثر النفسي في بلاغة القزويني فهو عندما يتكلم على بلاغة الكلام يقول : « واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »[2] ، ومقتضى الحال مختلف ، فخطاب الذكي يباين خطاب الغبي • ونلمح هذا الاثر في تعريفه لبلاغة المتكلم حيث يقول : « واما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ »[3] ، وهذا تعريف نفسي محض • ونلمح الاثر النفسي في حديثه عن اضرب الخبر ، فان كان المخاطب خالي الذهن في الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم ، وان كان متصور الطرفين مترددا في اسناد أحدهما الى الآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد ، وان كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الانكار • وقد سموا النوع الاول من الخبر ابتدائيا والثاني طلبيا والثالث انكاريا •

وتحدث عن الامزجة الانسانية في الفضائل البشرية المختلفة واثرها

---

(١) ينظر من الوجهة النفسية ص ١٩ وما بعدها •
(٢) الايضاح ص ٩ •
(٣) الايضاح ص ١١ •

في صوغ العبارات وفرق بين المولدين والعرب ، ورأى ان بناء الكلام للمزاج الاعرابي يخالف بناءه للمزاج الدخيل المستعرب ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قصة بشار المشهورة ، فقد روي عن الاصمعي انه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الاحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الاعظام ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي احدثتها في ابن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنا انك اكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فاحببت ان اورد عليه ما لا يعرف . قالا : فانشدناه يا أبا معاذ ، فانشدهما :

بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » « بكرا فالنجاح » كان أحسن فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة . قال : فقام خلف فقبل بين عينيه . وختم القزويني هذه القصة بقوله : « فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو وهم من فحولة هذا الفن الا للطف المعنى في ذلك وخفائه »(١) .

واعترف القزويني بان للاحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره ، يقول وهو يتكلم على أسباب جمال التشبيه والتمثيل : « ومن الدليل على ان للاحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره انك اذا كنت انت وصاحب لك يسعى في أمر على طرف نهر وانت تريد ان تقرر له انه لا يحصل من سعيه على طائل فادخلت يدك في الماء ثم قلت له : انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكيف انت في أمرك ؟ كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب زائد على العقل

---

(١) الايضاح ص ٢٠ ، وينظر الاغاني ج ٣ ص ١٩٠ ، ودلائل الاعجاز ص ٢١٠ ومفتاح العلوم ص ٨٢ ، والبلاغة وعلم النفس ص ١٣٩ .

المجرد »[١] • لقد أحس القزويني ان النفس تتأثر وتحركها الهواجس أو الحواس ولكنه لم يوضح هذا التأثير في النفس وتمكينه في القلب لانشغاله بالبحث في التقسيم والتحديد والقضايا الفلسفية والمنطقية • وسار على هذه السبيل شراح تلخيصه فملأوا كتبهم بالتصديقات والمقولات والدلالات العقلية والوضعية ، وكان الاولى بهم ان ينصرفوا عنها الى درس علاقة النفس بالانتاج الادبي وتقديره ونقده •

ولما أطل فجر النهضة الحديثة اتجه النقاد الى الاستفادة من علم النفس في النقد والدراسات البلاغية • وقد بدأ النقد الحديث المعتمد على التحليل النفسي في الادب حين نشر فرويد كتابه « تفسير الاحلام » سنة ١٩٠٠م وكتب ثلاث دراسات طويلة هي : ليوناردو دافنشي وهي دراسة نفسية جنسية لذكريات طفولية ، ومقالة عن دوستويفسكي وجريمة قتل الاب ودراسة لقصة ألمانية مغمورة عنوانها غراديفا ومؤلفها فلهلم ينسن ، وبهذه الدراسات الثلاث أقام فرويد منهجين من التحليل :

الاول : الباثوغرافيا أو دراسة المريض عصبيا أو الشخص المريض نفسيا مع اتخاذ آثاره الفنية دليلا هاديا في هذه الدراسة •

والثاني : نقد أدبي متصل حقا بالتحليل النفسي أو دراسة الاثر الادبي مع استعمال الآليات التي تستعمل في التحليل النفسي مفاتيح لهذه الدراسة[٢] •

وسرت هذه النفحة الى العالم العربي فكتب الاستاذ الخولي بحثا طريفا عن « البلاغة وعلم النفس » ورأى ان تقدم بين يدي الدرس البلاغي مقدمة نفسية هي أمس به والزم له مما اقتبس من بحوث أصولية أو منطقية أو فلسفية طبيعية مما اقحم فيه وحفلت به كتبه ، ويرى ان تدرس في هذه المقدمة القوى الانسانية بعامة وما له منها أثر فني بخاصة فنعرف غير قليل

(١) الايضاح ص ٢١٧ •
(٢) ينظر النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ٢٦١ ، والمذاهب النقدية ص ١٤١ •

من الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الاخرى من ناحية عمله الفني ، ونعرف مثل ذلك عن الخيال والذاكرة والاحساس وعن الذوق ، كما يجب ان تعرف الكثير عن امهات الخوالج الانسانية من حب وبغض وحزن وفرح وغيرة وانتقام وما الى ذلك مما هو مادة المعاني الادبية الكبرى في الآداب الانسانية كلها ، وعلى الخبرة بحركات النفس فيه واتجاهاتها يقوم النقد الفني ذو الاساس ، بل ان البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ وسبيل خلود الآثار الادبية للمنشئين والناقدين[1] .

وكان هـذا مدعاة الى صدور كتب في هذا الاتجاه منها كتاب « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » للاستاذ محمد خلف‌الله أحمد وقد أوضح فيه انتفاع الناقد الحديث بنتائج الدراسات النفسية بعد ان انتفع القدماء منها ، ومنها « الميزان الجديد » للدكتور محمد مندور الذي كان ميدانا رحبا لتطبيق وجهة نظـره في تحليل النصوص مستعينا بالدراسات النفسية والذوق الادبي السليم .

واستفاد النقاد الآخرون من علم النفس في فهم كثير من القضايا الادبية كالدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » والدكتور شوقي ضيف في دراسته لعمر بن أبي ربيعة[2] ، والعقاد في دراسته لابي نواس ، وكتب الدكتور مصطفى سويف كتابا في الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، وهي دراسة موفقة الى حد كبير .

ولا تزال هذه الخطوة في أولها مع اهتمام النقاد بالدراسات النفسية حديثا وحثهم على الالمام بعلم النفس والتحليل النفسي ليمدا الناقد بتفسير لماهية الشاعر أو الاديب ويساعدانه على تذوق عملهما الادبي . والذي نخشاه ان يستبد علم النفس بالبلاغة والنقد فيحيلهما الى ميدان رحب لتطبيق افكاره وآرائه وادخال مصطلحاته وبذلك يضيع النقد وتذهب البلاغة كما ذهبت يوم غزتها بحوث المنطق والفلسفة وعلم الكلام فاخرجتها عن هدفها

(١) ينظر البلاغة وعلم النفس ص ١٤٧ ، ومناهج تجديد ص ١٩٣ .
(٢) ينظر التطور والتجديد في الشعر الاموي ص ١٨٦ وما بعدها .

الذي درست لاجله • وانا حين ندعو الى الاستعانة بعلم النفس في الدراسات النقدية انما نريد ان يكون تناولنا له مساً رقيقاً ، نأخذ منه ما يعيننا على تحليل النصوص الادبية وتذوقها لا أن نأخذ منه مصطلحاته وافكاره التي يتيه فيها علماء النفس انفسهم فضلا عن الناقد الاديب •

ونضيف الى هذا كله الذوق الادبي السليم ، وبغيره لا يمكن دراسة الادب ونقده ، وقد أولى القدماء الذوق اهتماما وارجعوا اليه تلك الروعة التي يحسونها في الآثار الادبية • وكان النقد العربي في أول نشأته يعتمد على الذوق ، يسمع الرجل بيتاً أو قصيدة فيهتز طرباً وتأخذه نشوة عظيمة واذا ما سئل عن سر اعجابه لم يستطع ان يجد له تعليلا وانما هي النفس يستخفها الطرب فتنفعل وتظهر اعجابها وسرورها • وبقي النقاد يؤكدون عليه حتى في عهد سيطرة القواعد البلاغية والاهتمام بالتحديد والتقسيم • وقد عقد عبدالقاهر فصلا في الذوق ختم به كتابه « **دلائل الاعجاز** » وذهب الى ان العمدة في ادراك البلاغة الذوق والاحساس الروحاني مع ذكاء لماح يدرك الفروق الدقيقة بين العبارات والمعاني ، وهذا يتفق مع أحدث اتجاهات النقد الادبي فقد سأل أحدهم الشاعر « ت•س• اليوت » عن المنهج النقدي الذي يسير عليه الناقد فأجاب : بان المنهج الوحيد هو أن تكون ذكيا جدا[١] • وذهب السكاكي الى أبعد من هذا فرأى ان شأن اعجاز القرآن عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، يقول : « ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس الا ، وطريق اكتساب الذوق خدمة هذين العلمين »[٢] أي المعاني والبيان • وتابع القزويني عبدالقاهر والسكاكي في انه لابد من الطبع والذوق في البلاغة والنقد وردد ما قاله السكاكي من انه ليس من الواجب في صناعة ان يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها فلا على الدخيل في صناعة البلاغة ان يقلد صاحبه في بعض فتاواه ان فاته الذوق هناك الى ان يتكامل له على مهل

(١) ينظر النقد الادبي من خلال تجاربي ص ١٥٣ •
(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٦ •

موجبات ذلك الذوق ، ولخص كلام عبدالقاهر في ان دارس البلاغة لا يمكن ان يفهمها ويستفيد منها حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بان لما يوميء اليه من الحسن أصلا فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الاريحية تارة ويعرى منها اخرى ، واذا عجبته تعجب واذا نبهته لموضع المزية انتبه ، فاما من كانت الحالات عنده على سواء وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة والا اعرابا ظاهرا فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الذي يدرك به وزن الشعر ويميز به مزاحفه من سالمه[1] . وبذلك لا يغفل القزويني أثر الذوق الذي عليه العمدة في بلاغتنا الجديدة التي ينبغي ان نتخذ في دراستها المنهج الادبي الذي ليس فيه اضطراب القدماء وفلسفتهم وبعدهم عن روح البلاغة ومقاييس النقد الصحيح ، وان تكون أحكامها فنية خالصة ؛ لانها كما يقول الاستاذ الخولي « فن من الفنون ، وانها شقيقة الموسيقى ، وقسم من الفنون الصوتية فالحكم الذي يصدر في مثل هذه الدراسة هو الحكم الفني الذي يثبت الحسن والجمال ، أو يثبت القبح والدمامة »[2] .

(١) ينظر الايضاح ص ١٥ ـ ١٦ .
(٢) فن القول ص ٨١ .

مصادر البحث ومراجعه[1]

١ ـ المدخل الى النقد الحديث ـ الدكتور محمد غنيمي هلال · القاهرة ١٩٥٨ ·

٢ ـ تأريخ الاصلاح في الازهر وصفحات من الجهاد في الاصلاح ـ عبدالمتعال الصعيدي · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م ·

٣ ـ نشأة النقد الادبي الحديث في مصر ـ عزالدين الامين · القاهرة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م ·

٤ ـ مستقبل الثقافة في مصر ـ الدكتور طه حسين · دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٤ ·

٥ ـ التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ و١٩١٥ ـ أمين سامي · مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩١٧م ·

٦ ـ تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ـ أحمد مصطفى المراغي · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م ·

٧ ـ البلاغة الواضحة ـ علي الجارم ومصطفى أمين · الطبعة العاشرة بالقاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ·

٨ ـ فن القول ـ أمين الخولي · القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ·

٩ ـ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ـ أمين الخولي · بحث نشر في صحيفة الجامعة المصرية العدد الخامس مايو ١٩٣١م ·

١٠ـ مادة بلاغة ـ أمين الخولي (دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة العربية) ·

١١ـ البلاغة وعلم النفس ـ أمين الخولي · بحث نشر في مجلة كلية الآداب

---

(١) رتبت حسب ورودها في البحث ·

بجامعة القاهرة . المجلد الرابع ج ٢ سنة ١٩٣٦م .

١٢ـ مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ـ أمين الخولي . القاهرة ١٩٦١م .

١٣ـ الاسلوب ـ أحمد الشايب . الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٩٥٢م .

١٤ـ مقدمة لدرس لغة العرب ـ عبدالله العلايلي . المطبعة العصرية بالقاهرة .

١٥ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . مجلد ١٩ ، ٣٠ .

١٦ـ النقد الادبي ومدارسه الحديثة ـ ستانلي هايمان . ترجمة الدكتورين احسان عباس ومحمد يوسف نجم . بيروت ١٩٥٨ .

١٧ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاءالدين السبكي . طبع مع شروح التلخيص في القاهرة سنة ١٩٣٧م .

١٨ـ الايضاح في علم المعاني والبيان ـ جلال‌الدين القزويني . مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة . تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد .

١٩ـ منطق أرسطو ـ تحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوي . دار الكتب بالقاهرة ١٩٤٨ .

٢٠ـ فن الشعر ـ أرسطو . ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي . القاهرة ١٩٥٣م .

٢١ـ الشرح المختصر ـ سعدالدين التفتازاني . مطبوع مع شروح التلخيص في القاهرة ١٩٣٧م

٢٢ـ حاشية الدسوقي على شرح السعد ـ مطبوع مع شروح التلخيص في القاهرة ١٩٣٧م .

٢٣ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني . الطبعة الخامسة بالقاهرة ١٣٧٢هـ .

٢٤ـ الشرح المطول ـ سعدالدين التفتازاني . تركيا ١٣٣٠هـ .

٢٥ـ الشرح الاطول ـ ابراهيم بن محمد بن عربشاه الاسفراييني . تركيا ١٢٨٤هـ .

٢٦ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربي . مطبوع مع شروح التلخيص في القاهرة سنة ١٩٣٧م .

٢٧ـ أسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني . القاهرة ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨م .

٢٨ـ ابن أبي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ـ الدكتور حفني محمد

شرف · القاهرة ١٩٦٢م ·

٢٩ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي · القاهرة ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧ ·

٣٠ـ البيان العربي ـ الدكتور بدوي طبانه · الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م ، والطبعة الثالثة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م ·

٣١ـ شروح التلخيص · القاهرة ١٩٣٧م ·

٣٢ـ فن التشبيه ـ علي الجندي · القاهرة ١٩٥٢م ·

٣٣ـ تلخيص المفتاح ـ جلال‌الدين القزويني · تحقيق عبدالرحمن البرقوقي · الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م ·

٣٤ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور · ضياءالدين بن الاثير · تحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد · بغداد ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ·

٣٥ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكري · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ·

٣٦ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياءالدين بن الاثير · تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد · القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م ·

٣٧ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الاصبع المصري · تحقيق الدكتور حفني محمد شرف · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م ·

٣٨ـ سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجي ـ تحقيق عبدالمتعال الصعيدي · القاهرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م ·

٣٩ـ خزانة الادب وغاية الارب ـ تقي‌الدين أبو بكر المعروف بابن حجة الحموي · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٠٤هـ ·

٤٠ـ كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان ـ ابن قيم الجوزية · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٧هـ ·

٤١ـ الخصائص ـ ابن جني · تحقيق محمدعلي النجار · دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ·

٤٢ـ البلاغة الغنية ـ علي الجندي ـ القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ·

٤٣ـ البحر المحيط ـ أبو حيان الاندلسي الغرناطي · الطبعة الاولى بالقاهرة ١٣٢٨هـ ·

٤٤ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ـ مصطفى عبداللطيف

السحرتي ٠ القاهرة ١٩٤٨م ٠

٤٥ـ النقد الادبي من خلال تجاربي ـ مصطفى عبداللطيف السحرتي ٠ القاهرة ١٩٦٢م ٠

٤٦ـ من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ـ الدكتور محمد خلف‌الله ٠ القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ٠

٤٧ـ الاغاني ـ أبو الفرج الاصفهاني ـ طبعة دار الكتب بالقاهرة ٠

٤٨ـ المذاهب النقدية ـ الدكتور ماهر حسن فهمي ـ القاهرة ١٩٦٢م ٠

٤٩ـ التطور والتجديد في الشعر الاموي ـ الدكتور شوقي ضيف ٠ القاهرة ١٩٥٢م ٠